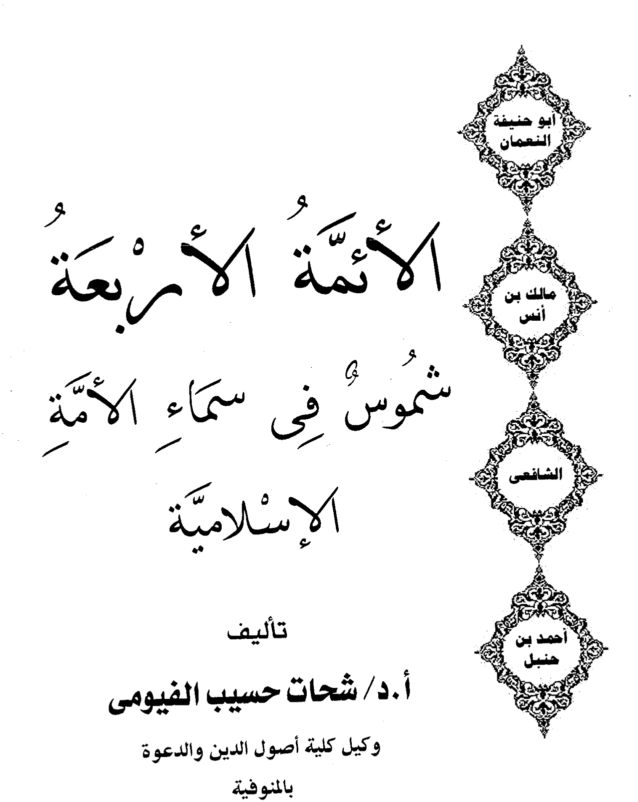

أبو حنيفة النعمان
مالك بن أنس
الشافعى
أحمد بن حنبل
الأَئِمَّةُ الأَرْبَعَةُ
شُمُوسٌ فِى سَمَاءِ الأُمَّةِ
الإِسْلامِيَّةِ
تأليف
أ.د/ شحات حسيب الفيومى
وكيل كلية أصول الدين والدعوة
بالمنوفية

بعد أن أتممتُ حفظَ القرآن الكريم فى «كُتَّاب» الشيخ خليل أبو شنب وانتقلتُ إلى جمعية المحافظة على القرآن الكريم فى مدينتنا للتقـــديم إلى المعهـــد الأزهرى انطلاقاً منها. وكان ناظرها الشيخ «فرج عُـــودين» -يرحمـــه الله- وكان وكيلها الأستاذ/ فهمى شلبى، وقدموا الأوراق فى معهد منوف، وسئل والدى يرحمه الله عن المذهب الذى يختاره لولده فاختار المـــذهب الشـــافعى وانضممت إلى سمط طلاب الأزهر وفى نهاية امتحان السنة الأولى أتى ميعـــاد امتحان مادة «الإملاء» وهى مادة قد لا يعيها بعض من يقومون بالتدريس فى الجامعة، فرسائل الدكتوراه الآن بها الكثير من الأخطاء الإملائيـــة، ضـــلَّت الهمزات مواطنها وتبعثرت فى غير أماكنها، ورحم الله الأستاذ عبد الرحمن أبو عطا الله، وأطال الله فى عمر الشيخ/ محمود أحمد حماد كان كل واحد منـــهما يسألنى دائماً عن الهمزات وأثمر ذلك فىَّ امتحان الإمـــلاء فى نهايـــة الســـنة الأولى:-

دق جرس امتحان مادة الإملاء وإذا بالمراقب يقول : اكتُبْ فى وســـط السطر.. وأخذ نفساً عميقاً ثم قال: «الإمام الأعظم» وسكت سكتةً كسكتة حفص عند تلاوة القرآن وازدحمت الهواجس فى خاطرى هل هذا الإمام هـــو عمر ابن الخطاب؟ هل هو الإمام علىّ؟ هل هو عمر بن عبد العزيـــز؟ وكـــل الطلاب صامتون وأنا الذى تجرى فى عقله هذه الهواجس رغم صمتى، حـــتى قطع المراقب هذا الصمت بقوله: «اكتب من أول السطر هو النُّعمان بن ثابت المكنىُّ بأبى حنيفة».

و ظل يملى علينا صوراً من حياة الإمام الأعظم أبى حنيفة.

وظلت السنون تمر وانتهينا من المرحلة الإعدادية والثانوية ثم انتقلنا إلى كلية أصول الدين بالقاهرة وكنت شغوفاً بالقراءة فهى مُحبَّبةٌ إلى نفسى وكنت أتجول فى سوق الأزبكية وهو سوق فكرى ينهل من ثقافته الأدباء والعلماء والخبراء والساسة وكل من يريد العلم فلفت انتباهى كتاب «أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح» فاشتريته بخمسين قرشاً، وعندما ركبت القطار متجهاً إلى بلدتنا تصفَّحت الكتاب فى تلك الرحلة، فكنتُ أجعل القراءة الحرة فى ذهابى إلى الكلية وإيابى منها، ووقع بصرى على نصيحة لأبى حنيفة قد وجهها لتلاميذه الذين ينهلون من ينبوعه العلمى ويعملون فى حانوته التجارى، وجهها لكل واحد منهم : «لا تجلس مكان امرأة حتى يبرد المكان، ولا تصف خُفَّ امرأة فمن وصفه كأنه وصف قدمها». فقلت ما سر هذا النهى عند الإمام أبى حنيفة؟ حتى شعرت بالإجابة حين كُنَّا فى شهر يناير وكان البرد فيه شديداً ونوافذ القطار مهشمة والبرد يعصف بركاب القطار وكنا نركب هذا القطار فى السادسة صباحاً فى أيام الشتاء وجاء القطار فى هذا اليوم ناقص العربات ووقف النَّاس ووقفتُ بجانب كرسىٍّ من الجلد وكانت تجلس عليه امرأة وأتت محطة القناطر الخيرية وقامت المرأة لتترل وانطلقت كالسهم لأن التوانى سيفقدنى المقعد وجلستُ وشعرت بالدفء كأن المكان متصلٌ بتنور فقفزت إلى ذهنى نصيحة أبى حنيفة وعرفت سر نهيه عن ذلك.

و لما أُعرْتُ إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالسعودية سمعت من طالب فى الكلية اسمه أحمد الغامدى، فقه أبى حنيفة كفقه النصارى ومكثت

مع الطلاب حولاً حتى اعترفوا بالإمام وقالوا سنقرأ كتبه فكانوا يلتقـــون بى ويترحَّمون على الرجل.

وفى محاضرة كنت ألقيها فى قرية «سمادون» التابعة لمركز أشمون (بلدتنا)، وكانت فى شهر رمضان، سألنى شاب بعد المحاضرة عن صدقة الفطر، وكان مما أجبته به: أنه يجوز إخراج القيمة. فقال شاب نحيف فيه نبات فى عارضيه: من الذى قال بالقيمة. قلت : الإمام أبو حنيفة، وفى القيمة يسر للفقير، فهـــو إن أخذ القمح قام بغسله وتجفيفه وطحنه وعجنه وخبزه، فيلاقى مشقة فى عصرنا أمَّا إن أخذ القيمة اشترى ما يريده وقلت لم يخرج أبو حنيفة عن السُّنَّة فهناك حديث «اغنوهم عن الطواف فى هذا اليوم». وقال الشاب معترضـــاً: أبـــو حنيفة لا يعتد برأيه . قلت له : مَنْ قال لك ذلك . قال: الـــدكتور/ محمـــد سعيد رسلان. وقال: لأن أبا حنيفة يأخذ كل شىء بالقياس. فهمت ما يريـــد الشاب!!.

وفى محاضرة ثانية فى هذه القرية سمعت أن هذا الدكتور قال: إن علماء الأزهر كفرة لأنهم معتزلة وأشاعرة.

وأغلب الظن أن الرجل لم يقل هذا النص، ولكن أتساءل : لماذا يقـــال هذا الكلام بين العوام؟

من أجل ذلك أردتُ أن أكتب عن الأئمة الأربعة.

وستجد عزيزى القارئ فى هذا الكتاب ما يسرك ويريحك راحة تامة.

المؤلف

أ.د/ شحاتة حسيب الفيومى



منزلة العلم فى الإسلام

أولاً : دعوة الإسلام للعلم :

كانت البشرية تحبو فى دروب العلم عندما بعث الله رسوله محمداً برسالته، وكانت شبهُ الجزيرة العربية تتخبَّط فى الدياجير التى أطبقت عليها. وكانت الأميَّة سمةَ أهلها قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (١).

ومع تباشير فجر القرآن التى تبدد غسق الليل كان أول ما نزل قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٢).

فأرشد الله البشريةَ إلى أن مصدرَ علمها هو خالقُها. وأن وسيلة تحصيل العلم هو تقييده فى السطور بالقلم. وأن القرآن كتاب هداية وعلم.

وأمر ﷺ هذه الأمة بالعلم عن طريق حثها عليه . قال تعالى ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (٣).

وأمر الله رسوله بالاتجاه إلى ربه راجياً منه الاستزادة من العلم قال تعالى: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (٤).

وأخبر الرسول ﷺ بأن طالب العلم إذا خرج فى طلبه فهو فى طاعة الله

---

(١) سورة الجمعة آية ٢.
(٢) سورة العلق آية ١-٥.
(٣) سورة التوبة آية ١٢٢.
(٤) سورة طه آية ١١٤.

ﷺ. فعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «من خرج فى طلب العلم كان فى سبيل الله حتى يرجع» رواه الترمذى.

ولا غرو فإن العلم نور يبدد دياجير الجهالة وهو ضياء السالكين إلى الله. ومصباح الراغبين فى الجنة. وزادُ صاحبه إلى الآخرة. يؤجَرُ صاحبُه عليه بعد موته. فهو يضيف لصاحبه عُمْراً على عمره. ويخلع على صاحبه الهيبة والمهابة. فالعلماء هم النَّاس بحق كما أخبر بذلك عبد الله بن المباركِ حين سئل: «مَن الناس؟ فقال: العلماء، قيل: فمن الملوك؟ قال : الزهاد. قيل: فمن السفلة؟ قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين. ولم يجعل ابن المبارك غير العالم من النَّاس لأن الخاصيَّة التى يتميز بها النَّاس عن سائر البهائم هو العلم. فالإنسان إنسانٌ بما هو شريف لأجله. وليس بقوة شخصه. فإن الجمل أقوى منه، ولا بعظمه فإن الفيل أعظم منه، ولا بشجاعته فإن السبع أعظم منه، ولا بأكله، فإن الثور أوسع بطناً منه، ولا ليجامع فإن أخس العصافير أقوى على السفاد – أى الجماع – منه. بل لم يخلق إلاَّ للعلم» [1].

والعلم غذاء للقلب والعقل كما أن الطعام غذاء للجسد وهذا ما أشار إليه لقمان عليه السلام فى وصيته لولده، قال لولده: «يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله سبحانه يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل السماء» [2].

فالعلم غذاء العقل قال فَتْحٌ الموصلى: «أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت؟ قالوا: بلى. قال: كذلك القلب إذا مُنع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت»[3].

(١) إحياء علوم الدين جـ ١ ص١٧. (٢) المرجع السابق ص١٨. (٣) انظر: المرجع السابق ص١٧.

و لقد علّق على كلام فتح الموصلى الإمام الغزالى فقال: لقد صدق فإن غذاء القلب العلم والحكمة، وبهما حياته، كما أن غذاء الجسد الطعام، ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ولكنه لا يشعر به إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح فى الحال، وإن كان واقفاً فإذا حط الموت عنه أعباء الدنيا أحس بهلاكه وتحسَّر تحسُّراً عظيماً[1].

فطالب العلم تضع له الملائكة أجنحتها توقيراً له ولعلمه، فعن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنَّة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يصنع» رواه الترمذى.

- **فضل العلم بأمور الدين : أى العلم الدينىَ :**

للعلم فى جميع ميادينه ومجالاته قَدرُه فى الإسلام فعلى المسلم أن يولِّى وجهه شطر العلوم المختلفة، من طب وتكنولوجيا والأسرار الكونية والأسرار النووية حتى لا تسيطر على الأرض قوى الشر لأن البشرية صارت كالغاب. والحياة فيها للأقوى فأضحى القوىُّ يستعبد الضعيف، فعلى الضعيف أن يَكْسِر قيدَه وأن يمتلك ما يمتلكه القوى حتى يردعه عن غشمه، ويدرأ ظلمه، وحتى لايتكرر ما تفعله الطاغية أمريكا، فمتى تُفيق أمةُ الإسلام من سُباتها وتَمْسَحُ عينيها من الكرى الذى أقفلها؟

فيجب أن يتعلم المسلمون سائر العلوم؛ بيد أن هناك علماً بين هذه العلوم له شرف عظيم وهو العلم بأمور الدين من أمر ونهى وأحكام وشرائع

(١) انظر: المرجع السابق.

وفهم لكتاب الله وسنة رسوله، وهذا الشرف قال عنه رسول الله ﷺ : «من يرد الله به خيراً يفقِّهْهُ في الدين» حديث متفق عليه.

و لقد دعا رسول الله ﷺ لمن يحمل العلم ويؤديه بأن يخلع الله على وجهه الحُسْنَ والبهاء قال عليه الصلاة والسلام «نضَّر الله امرءًا سمع منّا حديثاً فحفظه حتى يُبلِّغَه فرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقهُ منه وربَّ حامل فقه ليس بفقيه» رواه الترمذي.

● **آداب العلم :**

١- من آداب العلم أنه يكون لله تعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «من تعلَّم علماً مما يُبْتَغَى به وجهُ الله ﷻ لا يتعلمه إلاَّ ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْفَ [1] الجنة يوم القيامة» رواه أبو داود.

٢- كتابة العلم: على المتعلِّم أن يأخذ العلم وأن يكتب ما سمعه من علم، فلقد قال الله تعالى عن وسيلة تحصيله ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ .

عن أبي جُحيفةَ قال قلتُ لعليٍّ: يا أميرَ المُؤْمنينَ هَلْ عنْدَكُمْ سَوْدَاءُ في بَيْضَاءَ لَيْسَ في كتَاب الله؟ قالَ والَّذي فَلَقَ الحَبَّةَ وَبَرأَ النّسَمَةَ مَا عَلمْتُهُ إلاّ فَهْماً يُعْطيهُ الله رَجُلاً في القُرْآن ومَا في الصّحيفة [2]. قُلْتُ وما في الصّحيفَة؟ قالَ العَقْلُ وفكَاكُ الأسير وأنْ لاَ يُقتَلَ مُؤْمنٌ بكَافر» رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثا عنه مني، إلاَّ ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب» رواه البخاري.

---

(١) العَرْف: هو الريح الطيب.

(٢) هذه الصحيفة ورقة مكتوب فيها ما يأتي بعد ذلك وكانت في جراب سيفه.

٣- أن يتجنب العالم والطالب الكذب والافتراء على النبى ﷺ وعلـــى غيره فإن هذا ضلال وإضلال.

٤- عدم الإفتاء بغير علم: وهذا مما عمت به البلوى فى العالم الإســـلامى، فدخل فى ميدان الإفتاء كل من أعفى لحيته، فليس لهذا الميدان جنود يذبُّون عـــن حماه كلَّ متطفِّل وغريب عنه وليس له أسود يدفعون عنه كل متنطع. وظهـــرت طائفة تقرأ ظاهر النص سواء كان من القرآن أو السنة، ويقولـــون لا نأخـــذ إلاَّ بالقرآن والسنة ليس لنا فى هؤلاء الأئمة الأربعة أبى حنيفة ومالـــك والشـــافعى وأحمدَ من إرَب وتطاولوا على هؤلاء الأئمة، ونَسيتْ تلـــك الفئـــة أن الأئمـــة الأربعة هم أشد خوفاً لله منهم فلا يخرجون عن إطار الكتاب والسُّنَّة ولكـــن الله منح كل واحد منهم فهماً يغوص فى أعماق الآية أو الحديث فيُخْرِج منه معـــان كانت خافية على كثير من النَّاس ولا يخالف الكتاب والســـنة، والرســـول ﷺ يفعل شيئاً على هيئة خاصة ثم يفعل نفس الشيء على هيئة أخرى فيأخذ بعضهم بالهيئة الأولى والبعض بالهيئة الثانية ولكل واحد مُسوِّغ فى الأخذ.

و المصيبة التى حلت بالمسلمين أن من عرف مذهباً واحداً يخطِّئ المذاهب الأخرى. وفهم بعض الخطباء فى المساجد حديث السيدة عائشة وهو «كـــان رسول الله ﷺ لا يزيد على إحدى عشرة ركعة فى صلاة الليل» والحـــديث متفق عليه. وقال هذا الخطيب: صلاة التهجد بدعة ونسى الـــنص القـــرآنى ونسى أحاديث قيام الليل، وتحدث هؤلاء فى الأُضـــحية واضـــطرب النَّـــاس وتحيروا، وفى صلاة الصبح تحولت المساجد إلى ضوضاء مزَّقت سكون الليـــل فريق يريد القنوت، وفريق يمنع القنوت. فعلى الذى يتصدى للفتوى والحديث

أن يكون مُلمّاً بالمذاهب الأربعة حتى يصوِّب رأى من يريد القنوت ويصـــوِّب من يمنع القنوت.

٥- لمن يتصدى للفتوى أن لا يصادر على رأى الآخرين وأن يـــدرس الرأى الآخر، وأن يعترف بخطئه يقول أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي: أخبرني محمد بن قاسم العثماني غير مرة: وصلت الفســـطاط[1] مـــرة فجئت مجلس الشيخ أبي الفضل الجوهرى وحضرت كلامه على النَّاس فكان مما قال في أول مجلس جلست إليه إن النبي ﷺ طلَّق وظاهَر وآلَى[2]. فلمـــا خرج تبعتُهُ حتى بلغتُ معه إلى منزله في جماعة فجلس معنا في الدِّهْليز. وعرَّفهم أمرى فإنَّه رأى إشارة الغُربة ولم يعرف الشخصَ قبل ذلك في الواردين عليـــه فما انفضَّ عنه أكثرهم قال لى: أراك غريباً هل لك من كلام؟ قلت: نعم. قال لجلسائه: أفرجوا له عن كلامه. فقاموا وبقيتُ وحدى معه فقلت له: حضرتُ المجلس اليوم متبرِّكاً بك وسمعتُك تقول: آلى رسول الله ﷺ وصدقت وطلَّـــق رسول الله ﷺ : وصدقت . وقلت: وظاهرَ رسول الله ﷺ . وهذا لم يكـــن. ولا يصحُّ أن يكون، لأن الظهار منكر من القول وزور وذلك لا يجوز أن يقع من النبي ﷺ فضمنى إلى نفسه وقبَّل رأسى وقال لى: أنا تائب من ذلك جزاك الله عنى من معلِّم خيراً.

ثم انقلبتُ عنه وبكَّرت إلى مجلسه في اليوم الثانى فألفيته قد ســـبقنى إلى الجامع وجلس على المنبر فلما دخلتُ من باب الجامع ورآنى نـــادى بـــأعلى

---

(١) الفسطاط : مصر.

(٢) الظهار أن يقول لزوجته : أنتِ عليَّ كظهر أمِّى. و الإيلاء: أن يحلف أن لا يجامع زوجته مدة تزيد على أربعة أشهر، فترفع أمرها إلى القاضى فيخيِّره بين الفىء و الطلاق.

صوته مرحباً بمعلّمى أفسحوا لمعلّمى فتطاولت الأعناق إلىّ وحدَّقت الأبصـــار نحوى – وتعرفنى يا أبا بكر – يشير إلى عظيم حيائه فإنَّه كان إذا سلَّم عليـــه أحد أو فاجأه خَجِلَ لعظيم حيائه واحمرَّ حتى كأن وجهه طُلى بجُلَّنار [1]، قال: وتبادر النَّاس إلىَّ يرفعوننى على الأيدى ويتدافعوننى حتى بلغتُ وأنا لعظم الحياء لا أعرف فى أى بقعة أنا من الأرض. والجامع غاصٌّ بأهله وأسال الحياء بـــدنى عرقاً وأقبل الشيخ على الخلق فقال لهم: أنا معلّمكم وهذا معلّمى لَمـــا كـــان بالأمس قلتُ لكم: آلى رسول الله ﷺ. وطلَّق وظاهر فما كان أحد منكم فقه عنى ولا ردَّ علىَّ، فاتبعنى إلى منزلى. وقال لى كذا وكذا. وأعاد ما جرى بينى وبينه. وأنا تائب عن قولى بالأمس وراجع عنه إلى الحق فمن سمعه ممن حضـــر فلا يعوِّل عليه ومن غاب فليبلغه من حضر فجزاه الله خيراً وجعل يحفـــل فى الدعاء والخلق يؤمِّنون فانظروا رحمكم الله إلى هذا الدين المـــتين والاعتـــراف بالعلم لأهله على رءوس الملأ من رجل ظهرت رياسته واشـــتهرت نفاســـتُه لغريب مجهول العين لا يُعْرَف مَنْ ولا مِنْ أين فاقتدوا به ترشدوا [2]. لقد ساق الإمام أبو حامد الغزالى آداباً للمتعلم وآداباً للعالِم والمرشد وأطلـــق عليهـــا وظائف وأسوقها باختصار كبير:

- **آداب المتعلم:**

أولاً: تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف إذ العلـــم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى وكما لا تصـــح الصلاة التى هى وظيفة الجوارح إلاَّ بتطهير الظاهر عـــن الأحـــداث

---

(١) جُلَّنار: هو زهر الرُّمان.

(٢) أحكام القرآن لابن العربى جـ١ ص١٨٢ ، ١٨٣.

والأخباث فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلاّ بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف.

ثانياً: أن لا يتكبر على العلم ولا يتأمَّر على معلم بل يلقى إليه زمام أمره بالكُلّيَّة فى كل تفصيل ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق، وينبغى أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته قال الشعبى: صلى زيد بن ثابت على جنازة فقُرِّبت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد: خلِّ عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء فقبَّل زيد بن ثابت يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ .

ثالثاً: أن يقلّل طالب العلم علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإن العلائق شاغلة وصارفة ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [1]. ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ولذلك قيل: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كُلّك، فإذا أعطيته كلّك فأنت من إعطائه إياك بعضه على خطر».

رابعاً: أن يحترز الخائض فى العلم فى مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف النَّاس سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة فإن ذلك يدهش عقله ويحيِّر ذهنه ويفتر رأيه ويؤيِّسه عن الإدراك والاطلاع بل ينبغى أن يتقن أوَّلاً الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه ثم يعد ذلك يصغى إلى المذاهب والشبه، وإن لم يكن أستاذه

(١) سورة الأحزاب آية ٤.

مستقلاً باختيار رأى واحد وإنما عادته نقل المذاهب وما قيـــل فيهـــا فليحذر منه فإن إضلاله أكثر من إرشاده فلا يصلح الأعمـــى لقـــود العميان وإرشادهم.

خامساً: أن لا يدع طالب العلم فنّاً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلاّ وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ثم إن ساعده العمر طلب التبحُّر فيه وإلاّ اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية، فـــإن العلوم متعاونة مرتبط بعضها ببعض.

- **آداب المعلّم :-**

للمعلم آداب وهى:

أولاً: الشفقة على المتعلمين وأن يريهم مجرى بنيه ونـــرى هـــذا فى ســـلوك الطالب والأستاذ فى القرآن الكريم فلما طلب موسى مصاحبة الخضر والتقى به ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَـــنِ ممَّـــا عُلِّمْـــتَ رُشْدًا﴾ (١)، صدَّر موسى طلبه بالسؤال إشفاقاً ورجاء وتواضعاً فكان الأستاذ أشفق منه عليه ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَـــبْرًا، وَكَيْـــفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (٢)، قال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (٣).

و من شفقة الخضر بموسى بيَّن له مبدأ الصحبة ولم يتركه على عـــدم علمه بالرحلة قال له ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْـــدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٤)

(١) سورة الكهف آية ٦٦.
(٢) سورة الكهف آية ٦٧ ، ٦٨ .
(٣) سورة الكهف آية ٧٠.
(٤) سورة الكهف آية ٧٠.

ومن رحمته بموسى: أن انفصاله عن موسى لم يكن من جانبه بل كان من جانب موسى وعند الانفصال كشف له عن الغموض الذى اكتنف الرحلة، فما أعظم هذا.

ثانياً: إن كان المعلِّم غنيّاً يكفيه ماله فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاء ولا شكوراً بل يعلِّم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرُّب إليه ولا يرى لنفسه مِنَّةً عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم، وإن لم يكن غنياً وكان فى حاجة فليأخذ.

ثالثاً: أن لا يدع من نصح المتعلِّم شيئاً وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفىّ قبل الفراغ من الجلىّ ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب من الله دون الرياسة والمباهاة والمنافسة.

رابعاً: أن يزجرَ المتعلِّمَ عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يُصَرِّح. وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ فإن التصريح يهتك حجاب الهيئة ويورث الجرأة على الهجوم ويهيِّج الحرص على الإصرار.

خامساً: أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفِّره أو يخبط عليه عقله فَلْيَبُثُّ إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بها [(١)]، ومن أراد المزيد من الآداب فليولِّ وجهه شطر السنة فى كتاب العلم فى البخارى ومسلم والترمذى وغيرهم.

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ١ ص٧٥ – ٨٩ باختصار و تصريف.

● **ثمرة العلم:**

للعلم ثمرة لصاحبه فعند خروج طالبه لتحصيله تضع الملائكةُ أجنحتها له احتراماً وإجلالاً لصنيعه، وبعض الكائنات الحية تستغفر له فى الدنيا وفضله يعلو على العابد المنقطع للعبادة كفضل القمر على سائر الكواكب والعلماء ورثة الأنبياء فى علمهم وهذا الإرث خير من الذهب والفضة وهذا الإرث حظ كبير، فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغي فيه علْماً سهَّل الله له طَرِيقاً إِلَى الْجَنّة، وَإِنّ المَلاَئكَةَ لَتَضَعُ أَجْنحتَهَا لطَالب العلْم رضًى بما يصنع، وَإِنّ العَالم لَيَسْتَغْفرُ لَهُ مَنْ في السّمٰوات وَمَنْ في الأَرْض حَتّى الْحيتَانُ في المَاء، وَفَضْلُ العَالم عَلَى الْعَابد، كَفَضْل الْقَمَر عَلَى سَائر الْكَوَاكب، وإنّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبيَاء، وإنّ الأنْبيَاءَ لَمْ يُوَرّثُوا دينَاراً وَلاَ درْهَماً، وإنّمَا وَرّثُوا الْعلْمَ، فَمَنْ أَخَذَه أَخَذَ بحَظ وَافر»رواه أبو داود والترمذى.

وفى الدنيا أيضاً يصلى اللهُ تعالى وملائكتُه وأهلُ السمٰوات والأرض والحيواناتُ والحشراتُ والحيتانُ يصلون على العلماء الذين يعلّمون النّاس الخير، فعن أَبي أُمَامَةَ أنَّ رَسُولُ الله ﷺ قال: «فَضْلُ الْعَالم عَلَى العَابد كَفَضْلي عَلَى أَدْنَاكُمْ، ثُمَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : إنّ الله وَمَلاَئكَتَهُ وَأَهْلَ السّمٰوَات وَالأَرَضينَ حَتّى النّمْلَةَ في جُحْرِهَا وَحَتّى الْحُوتَ لَيُصَلّونَ عَلَى مُعَلّم النّاس الْخَيْرَ» رواه الترمذى .

وهؤلاء العلماء لهم أجور مثل أجور من طبَّق علمهم بعد أن علّموهم وأرشدوهم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أن رسول الله ﷺ قال: مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ منْ الأَجْر مثْلُ أَجُور مَنْ يَتّبعُهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلكَ منْ أُجُورهمْ شَيْئاً» رواه الترمذى.

ولّما كانت الدنيا حقيرة ويُشرَك بالله فيها وهو الخالق والرازق ويُعْبَدُ غيرُه ويُعصى فى ملكه لعنها الرسول ﷺ واستثنى من هذا اللعن أشياء، فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: "أَلاَ إِنّ الدّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاّ ذِكْرُ الله وَمَا وَالاَهُ وَعَالِمٌ أَو مُتَعَلّمٌ» رواه الترمذى.

و بعد رحيل العالم لا ينقطع ثواب علمه حين ينتفع به النّاس فثواب علمه يرجع إليه فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ : إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» رواه مسلم.

- **درجات العلماء فى الآخرة :-**

تحدث الله تعالى عن خشية العلماء وقصر الخشية من الله عليهم فصوَّرها فى صورة بليغة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [1]، فخشيتهم خشية خاصة بهم أهّلتهم لأن يرفع الله درجاتهم، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [2].

---

(١) سورة فاطر آية ٢٨.
(٢) سورة المجادلة آية ١١.

أبو حنيفة

الفقيه الفيلسوف

قال الإمام الشافعى:

« النّاس عيال على أبى حنيفة فى الفقه »



اسم الإمام أبى حنيفة :-

هو النعمان بن ثابت بن زوطى، وهو من أهل كابل – فى أفغانستان – كان جده زوطى مملوكاً لبنى تيم الله بن ثعلبة فأُعتق فولاؤه لبنى تيم الله بـــن ثعلبه ثم لبنى قفل.

أمَّا أبوه ثابت فقد ولد فى ظل الإسلام (١)، وكنية النعمان بن ثابت أبو حنيفة (فعن عمر بن حماد بن أبى حنيفة قال : قال أبو حنيفة: لا يكتنى بكنيتى إلاَّ مجنون، قال: فرأينا عدة اكتنوا بها فكان فى عقولهم ضعف)(٢).

ميلاد أبى حنيفة :-

اختلف فى ميلاده فذهب فريق إلى أنه وُلد سنة إحدى وستين من الهجرة وذهب فريق آخر إلى أنه ولد سنة ثمانين من الهجرة ورجَّح الخطيب البغدادى الرأى الثانى بقوله عن الرأى الأول: لا أعلم لصاحب هذا القول متابعاً.

وأجمعت الآراء على أنه توفى سنة خمسين ومائة. عن عمر ناهز السبعين عاماً(٣).

كانت الكوفة بالعراق هى الأرض التى درج عليها الإمام أبـــو حنيفـــة وفيها عاش وترعرع. (فعن سالم البصرى قال: سمعت أبا حنيفة يقول: لقيـــتُ عطاء بمكة فسألته عن شىء فقال: من أين أنت ؟ قلتُ من أهل الكوفة. قال: أنت من أهل القرية الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً؟ قلت: نعم. قال: فمن أى

---

(١) راجع تاريخ بغداد جـ ١٣ ص٣٢٤ ، ٣٢٥.

(٢) راجع المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق ص٣٣١.

الأصناف أنت؟ قلت: ممن لا يسب السلف ويؤمن بالقدر ولا يكفــر أحــداً بذنب . قال: فقال لى عطاء: عرفتَ فالزم)[1].

وصف أبى حنيفة :-

رجل يسير فى تؤدة ورزانة، وسيط القامة رَبْعَة ليس بالقصير ولكن إلى الطول أقرب حسن الطلعة تعلوه سمرة رقيقة وصفه حفيده عمر بن حماد بن أبى حنيفة فقال: (إن أبا حنيفة كان طوالاً تعلوه سمرة وكان لبَّاساً، حسن الهيئــة كثير التعطر يُعرف بريح الطيب إذا أقبل وإذا خرج مــن منزلــه قبــل أن تراه)[2].

هذا الرجل تنم هيئته عن مقامه الرفيع وينبئك مخبره علــى أنــه مــن المخلصين يعلو وجْهَهُ الوقارُ. له فؤاد جسور، هو الشجاعة فى عنفوانها وجنان لا يطيش عند النازلة . إذا سمع اللغو ترفَّع عنه، هيوباً لا يتكلم إلاَّ إذا ســئل، فإذا دعتْ للحديث دواعيه خرجت كلماته سلسلاً يتفجر من ينبوع يفــيض سلسلاً كأنه يتلقى وحياً من السماء، أرض العراق وأرض الحجاز وسماء الشام يعرفون هذا الرجل، قال (جعفر بن ربيع: أقمتُ على أبى حنيفة خمس ســنين فما رأيت أطول صمتاً منه فإذا سئل عن الفقه تفتَّح وسال كالوادى)[3].

هذا الرجل يتبين عقله من منطقه ومن مشيته، فتواه نسيم يهب علــى العراق والشام والحجاز ومصر. تتردد عباراته بجنب أساطين المسجد الجامع فى الكوفة فتتردد أصداؤها فى الحرمين وفى المسجد الأقصى ببيت المقــدس وفى

---

(١) المرجع السابق ص٣٣١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) وفيات الأعيان جـ ٥ ص٤٠٩.

جامع عمرو بمصر. يعرف العامة أنه رجل عظيم يصنع العظـائم ولا يصـنعه الخلفاء ولا الأمراء، فإذا ولّى وَجْهَهُ شطر المسجد. أسرع النّاس إلى ساريته يلتمسون الدُّر الذى ينبثق عن فمه. يطالعهم كلَّ آن بجلائل العلم التى ينحنى له الأفذاذ من العلماء. ولو أتيح للأجيال الذين لم يعاصروا هـذا الرجـل أن يروه لشهدوا رجلاً هو أخلد الرجال فى تاريخ الأمة الإسلامية بما بيَّن فى الفقه من خفايا ودقائق فمكّن للشريعة السمحة أسباب الانتشار فظلّت كما أنزلهـا الله عصرية فى كل عصر ومصر.

بزوغ شمس العلم على أبى حنيفة :-

ولد أبو حنيفة كما سبق سنة ثمانين للهجرة، ولقد سُمِّى باسم ملك من ملوك العراق هو «النعمان بن المُنْذر»، ولم يتلق العلم فى مدرسة ولا جامعـة وإنما دخل المسجد الجامع فى الكوفة ليتعلم على حصيرة.

و كان طفلاً فى عصر بنى أمية وكان بنو أمية فى قمة المجد فى حكم عبد الملك بن مروان وكانت الكوفة كأتون مستعر وكان أمير العراق فى طفولـة النعمان بن ثابت هو الحجاج بن يوسف الثقفى رجلاً ما يزال اسمه يجـرى فى التاريخ الإسلامى كسفّاح سَفَحَ دماء كثير من المسلمين والعلماء، فالنعمان لم يلبث وهو فى بواكير حياته فى ليلة ولا فى نهـار دون أن تصـطك مسـامعه بأحاديث الحجاج الطاغية الناشبة براثنُه فى أعناق المسلمين فلم يعرف التاريخ رجلاً بهذه الغلظة والقسوة ذبَّح أبناء المسلمين واستحيا نساءهم فى العـراق عامة وفى الكوفة خاصة. وحمل الطاغية فى عنقه دم العلماء (فلم يتردد أن يقتل فى سنة خمس وتسعين رجلاً – ما على ظهر الأرض رجل إلاَّ ويحتاج إلى علمه

هو سعيد بن جبير ومن بعد ذلك بعام فى سنة ست وتسعين مات أستاذ العراق إبراهيم النَّخْعى مختفياً عن عيونه) [1].

ولما يفع الفتى الأسمر الموهوب أبو حنيفة كان الحجاج جبار الأرض قــد قبضه جبار السماء فأهلكه، ورحل إلى دار الجزاء مخلِّفــاً فى الــدار الفانيــة أحاديث مآسية.

ابتداء أبى حنيفة فى النظر فى العلم :-

لقد دعا علىُّ بن أبى طالب رضي الله عنه لثابت والد أبى حنيفة وكان صغيراً دعا له بالبركة فيه وفى ذريته، فعن إسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة قال: (والله ما وقع علينا رِقٌّ قط وُلد جدى – أبو حنيفة – فى سنة ثمانين وذهب ثابــت – والد أبى حنيفة – إلى علىٍّ بن أبى طالب وهو صغير فدعا له بالبركة فيــه وفى ذريته ونحن نرجو من الله أن يكون قد استجاب الله ذلك لعلى بن أبى طالــب فينا والنعمان بن المرزبان أبو ثابت هو الذى قــدَّم الفــالوذج [2]، فى يــوم النيروز[3] فقال: نَوْروزنا كل يوم. وقيل كان ذلــك فى المهرجــان، فقــال: مهرجونا كل يوم)[4].

فبركة دعوة الإمام علىٍّ بن أبى طالب حلَّت فى أبى حنيفة وذريته.

---

(١) أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام ص١١.

(٢) الفالوذج: حلواء تصنع من الدقيق و الماء و العسل أو من النشا و السُكَّر و الماء.

(٣) النَّوْروز : أو النَّيْرُوز: هو أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية وهو أكبر الأعياد الإيرانية و يوافق الحادى و العشرين من شهر مارس.

(٤) تاريخ بغداد جـ ١٣ ص٣٢٦.

رؤيا الإمام أبي حنيفة :-

(عن شعيب بن أيوب حدثنا أبو يحيى الحُمَّانى قال: سمعت أبا حنيفة يقول رأيت رؤيا أفزعتنى حتى رأيت كأنى أنبش قبر النبى ﷺ فأتيتُ البصرة فأمرت رجلاً يسأل محمد بن سيرين – عن تأويلها – فسأله فقال: هذا رجل ينبش أخبار النبى ﷺ – وروى – عن هشام بن مهران يقول: رأى أبو حنيفة فى النوم كأنه ينبش قبر النبى ﷺ فبعث من سأل محمد بن سيرين فقال محمد بن سيرين: مَنْ صاحب هذه الرؤيا؟ فلم يجبه عنها ثم سأله الثانية فقال: مثل ذلك. ثم سأله الثالثة. فقال: صاحب هذه الرؤيا يثير علماً لم يسبقه إليه أحد قبله. قال: هشام : فنظر أبو حنيفة وتكلّم)[1].

فهذه إرهاصات تنبئ عن عقلية هذا الرجل .

و لقد وردت أقوال مختلفة عن الإمام أبي حنيفة فى ابتداء نظره فى العلم:-

أولاً: حدثنا الحسن بن أبي مالك عن أبي يوسف قال: قال أبو حنيفة لما أردتُ طلب العلم جعلتُ أتخيَّر العلوم وأسأل عن عواقبها:

فقيل لى: تعلّم القرآن.

فقلتُ: إذا تعلمت القرآن وحفظتُه فما يكون آخره؟

قالوا: تجلس فى المسجد ويقرأ عليك الصبيان والأحداث ثم لا تلبث أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك – أو يساويك – فى الحفظ فتذهب رياستك .

(١) المرجع السابق ص٣٣٥.

قلتُ: فإن سمعت الحديث وكتبتُه حتى لم يكن فى الدنيا أحفظ منى؟

قالوا: إذا كبرتَ وضعفتَ وحدَّثتَ واجتمع عليك الأحداث والصبيان ثم لا تأمن أن تغلط فيرمونك بالكذب فيصير عاراً عليك فى عقبك.

فقلتُ: لا حاجة لى فى هذا.

قلتُ: أتعلم النحو. فقلت: إذا حفظت النحو والعربية ما يكون آخر أمرى؟

قالوا: تقعد معلّماً فأكثر رزقك ديناران إلى ثلاثة.

قلت: وهذا لا عاقبة له.

قلتُ: فإن نظرتُ فى الشعر فلم يكن أحد أشعر منى. ما يكون أمرى؟

قال: تمدح هذا فيهب لك أو يحملك على دابة أو يخلع عليك خلعة وإن حرمك هجوتَه فصرت تقذف المحصنات.

قلتُ: لا حاجة لى فى هذا.

قلتُ: لا يسلم مَنْ نظر فى الكلام من مشنَّعات الكلام فَيُرْمَى بالزندقة فإما أن تُؤخذ فَتُقتَل. وإما أن تسلم فتكون مذموماً ملوماً.

قلت: فإن تعلمتُ الفقه؟

قالوا: تُسْأَلُ وتُفتى النَّاس وتُطلبُ للقضاء. وإن كنت شاباً.

قلتُ: ليس فى العلوم شيء أنفع من هذا. فلزمتُ الفقه وتعلَّمته [1].

ثانياً: لاحت على الحدث الناشئ – أبى حنيفة – مخائل النجابة وتعارفها النَّاس حتى بلغ حديثُها قاضى الكوفة وزعيم محدثيها فى عصره الإمام الشعبى

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١٣ ص٣٣١ ، ٣٣٢.

فلما مرَّ به يوماً دعاه قائلاً : إلى مَنْ تختلف؟ قال: أختلف إلى السوق.

وسمَّى له أستاذه فى السوق. قال الشَّعبى: لم أَعن الاختلاف إلى السوق، بل عنيت الاختلاف إلى العلماء، قال: إنى قليل الاختلاف إليهم. قال الشعبى: عليك بالنظر فى العلم(1).

ثالثاً: عن زفر بن الهذيل قال: سمعت أبا حنيفة يقول: كنت أنظر فى الكلام حتى بلغت فيه مبلغاً يُشار إلىَّ فيه بالأصابع. وكنا نجلس بالقرب من حلقة حماد بن أبى سليمان فجاءتنى امرأة فقالت: رجل له امرأةٌ أَمَة أراد أن يطلِّقها للسُّنَّة كم يُطلِّقها فلم أدر ما أقول فأمرتُها تسأل حَمَّاداً ثم ترجع فتخبرنى فسألتْ حماداً فقال: يطلقها وهى طاهر من الحيض والجماع تطليقة ثم يتركها حتى تحيض حيضتين فإذا اغتسلت فقد حلَّت للأزواج فرجعت فأخبرتنى فقلت لا حاجة لى فى الكلام . وأخذت نعلى فجلست إلى حماد فكنت أسمع مسائله فاحفظ قوله ثم يعيدها من الغد فأحفظها ويخطئ أصحابه فقال لا يجلس فى صدر الحلقة بحذائى غير أبى حنيفة فصحبته عشر سنين(2).

(1) أبو حنيفة بطل الحرية و التسامح فى الإسلام ص11.
(2) تاريخ بغداد جـ 13 ص333.

فى مدرسة حمّاد بن سليمان العُكلى

اختار أبو حنيفة المدرس فاختار أبا إسماعيل حماد بن سليمان العكلى الكوفى فى المسجد الجامع.

رآه حماد «فقال له : ماجاء بك؟ قال: تعلُّم العلم. قال: تعلَّم كل يوم ثلاث مسائل»[1].

انضم أبو حنيفة حنيفة إلى تلاميذ الحلقة يحفظ مسائله ويجترها فى الغداة فيخطئ التلاميذ ويصيب أبو حنيفة ويسأل ويكثر الأسئلة ويُلحُّ فى الجدال حتى ليحمرَّ وجه حماد.

بيد أن الأستاذ يدرك مواهب تلميذه من عمق أسئلته ومن صلته بالله تعالى.

«قام يوماً من مجلسه فقال حمَّادٌ لجاره: هذا على ما ترى منه يقوم الليل ويُحييه. وقال أبو حنيفة عن نفسه فيما بعد ذلك كنت أكثر السؤال فربما تبرَّم بى – أى ضاق صدره – ويقول أبا حنيفة قد انتفخ جنبى وضاق صدرى»[2].

لقد أحبَّ أبو حنيفة أستاذه وأحبَّه أستاذه وحظى أبو حنيفة بنصيب من الرعاية والعناية وتوثقت عُرى المحبة بينهما ونرى ذلك فى حديث إسماعيل بن حماد قال: «غاب أبى غيبة فى سفر له ثم قدم فقلت له يا أبت إلى أى شىء كنتَ أشوق؟ قال: وأنا أرى أنه يقول إلى ابنى. فقال إلى أبى حنيفة . ولو أمكننى أن لا أرفع طرفى عنه فعلت»[3].

---

(١) أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام ص١٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) تاريخ بغداد جـ ١٣ ص٣٣٤ .

فى ظل هذا الحب من شيخه نهل أبو حنيفة من ينبوع علم حماد. فكـــان يسهر مع جماعة من أصحابه فى دار حماد يتدارسون «وكان للشيخ ديك يصيح من أوّل الليل فكانت العلامة بين حماد وأصحابه أن يصيح الديك فإذا صـــاح قام حمادٌ فينفرط عقد الجماعة ويقول أبو حنيفة : يا لك من ديك قبّحـــك الله قطعتَ حديثنا. إن شر الديكة ما صاح أول الليل»[1].

أراد أبو حنيفة أن يخلّد اسمَ شيخه فسمَّى ولدَه حماداً حتى يضىء اســـمُ شيخه البيتَ كما أضاء علمه عقله.

لم يعلّم حمادٌ أبا حنيفة العلم فقط بل علمه التطبيق فهو رجل «كان آية فى الزهد والورع يُفَطِّر كلَّ ليلة فى شهر رمضان خمسين إنساناً فإذا كانت ليلة الفطر كساهم ثوباً ثوباً»[2]. ولقد صار ذلك فى سلوك أبى حنيفة.

حينما بلغ أبو حنيفة ثلاثين سنة حدثته نفسه أنه أُوتى حظّاً من المعرفـــة وأنه أَلَمَّ بالفقه الإسلامى وأنه يستطيع أن يعطى النّاس مما فتح الله عليه فخرج يوماً بالعشى تنازعه نفسه طلب الرياسة فدخل المسجد وأوى إلى ركن بعيـــد عن حلقة أستاذه يكوِّن لنفسه حلقة أخرى فرمى ببصره فى أرجـــاء المســـجد فرأى أستاذه كواسطة العقد فى حلقته فهيَّجتْه الذكريات ولم تطب نفســـه أن تفارق هذا الأستاذ العظيم الذى قال عنه «صحبته عشر ســـنين ثم نـــازعتنى نفسى الطلب للرياسة فأحببت أن أعتزله وأجلس فى حلقة لنفسى فخرجـــت بالعشى وعزمى أن أفعل فلما دخلت المسجد فرأيتُه لم تطب نفسى أن أعتزله فجاءه فى تلك الليلة نعى قرابة له قد مات بالبصرة وترك مالا وليس له وارث

---

(١) أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام ص١٦.

(٢) المرجع السابق.

غيره فأمرني أن أجلس مكانه»[1].

جلوس أبي حنيفة في مكان شيخه :-

رحل حماد إلى البصرة ليأخذ إرثه من قريبه ولقد دعتْ الدواعى أن يعزم أبو حنيفة على أن لا يفارق حماداً.

منها: أنه قال: «فما هو إلاَّ أن خرج حمادٌ حتى وردت عليَّ مسـائل لم أسمعها منه فكنتُ أجيب وأكتب جوابي فغاب شهرين ثم قدِم فعرضتُ عليـه المسائل وكانت نحواً من ستين مسألة فوافقني في أربعين وخالفني في عشـرين فآليتُ على نفسي أن لا أفارقه حتى يموت فلم أفارقه حتى مات»[2].

ومنها: أنه قال: «قدمتُ البصرة فظننت أني لا أسأل عن شيء إلاَّ أجبتُ فيه فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب . فجعلتُ على نفسـي أن لا أفارق حماداً حتى يموت فصحبته ثماني عشرة سنة»[3]. ظل أبو حنيفة ملازماً لشيخه حماد.

خلاف بين أبي حنيفة وأستاذه :-

كانت عادة أبي حنيفة أنه يأخذ عن شيخه الفقه وكان له عقل يمحِّـص ويدقق فيما أخذه عن شيخه وحين لا يروق له شيء فيما أخذه عنه لا يجـد حرجاً في مخالفته:

خرج أبو حنيفة حنيفة مع أستاذه يشيِّعان جنازة «فسأل رجل حماداً إني على دابة سيور وقد غابت الشمس ولستُ على الوضوء. قال له: تيمم، لكن

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١٣ ص٣٣٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

الرجل سأل أبا حنيفة فقال: سر وانتظر غيبوبة الشفق فإذا خشيت ذلك فتيمم وصل وسار الرجل فصادفه الماء فتوضأ وهكذا لم يُجز للرجل أن يتيمم ما دام يغلب على الظن وجود الماء وفى الوقت سعة طلباً للكمال بالطهارة الأصلية. وهى أول فتوى خالف فيها أستاذه»[1].

أساتذة أبى حنيفة

لقد أخذ أبو حنيفة علمه عن كثير من العلماء:-

منهم : حماد بن أبي سليمان «أخبرنا محمد بن فضيل هو البلخى العابد، أنبأنا أبو حنيفة مطيع قال : قال أبو حنيفة : دخلت على أبى جعفر أمير المؤمنين فقال لى : يا أبا حنيفة عمن أخذت العلم؟ قال: قلت: عن حمَّاد عن إبراهيم عن عمر بن الخطاب، وعليٍّ بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، قال : فقال أبو جعفر: بخٍ بخٍ [2] استوثقت ما شئت يا أبا حنيفة الطيِّبين الطاهرين المباركين صلوات الله عليهم وحدثنا ابن أبي أويس قال: سمعت الربيع بن يونس يقول: دخل أبو حنيفة يوماً على المنصور وعنده عيسى بن موسى. فقال: للمنصور هذا عالم الدنيا اليوم . فقال له: يا نعمان عمن أخذتَ العلم؟

قال: عن أصحاب عمر عن عمر. وعن أصحاب عليٍّ عن عليٍّ. وعن أصحاب عبد الله عن عبد الله وما كان فى وقت بن عباس على وجه الأرض

(١) أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام ص١٦ ، ١٧.
(٢) بَخْ بَخْ: بفتح الباءين : وكسر الخاءين مع التنوين . أو تسكينهما ، و تقال عند الرضا والإعجاب أو المدح أو الفخر.

أعلم منه . قال: لقد استوثقت لنفسك»[1].

فلقد تفقه أبو حنيفة على يد حماد وكان له تأثير كبير فى شخصيته وأدركه أبو حنيفة فكان دائم الاستغفار لأستاذه (فعن إبراهيم بن سماعة – مولى بنى ضَبَّة – قال: سمعت أبا حنيفة يقول: ما صليت صلاة منذ مات حماد إلاَّ استغفرت لـــه مع والدى وإنى لأستغفر لمن تعلمت منه علماً أو علمته علماً»[2].

– ولقد جمع بعض العلماء مشايخَ أبى حنيفة من الصحابة فى نظم قال فيه:

«لقى الإمـــام أبـــو حنيفـــة ســـتة ... من صحب طه المصـــطفى المختـــار
أنســـاً وعبـــد الله نجـــل أنيســـهم ... وسمِّيـــه ابـــن الحـــارث الكـــرَّار
و زاد ابن أوفى وابن واثلة الرضـــى ... واضمم إليهم معقـــل بـــن يســـار

و علق أبو الفلاح عبد الحى بن العماد: على هذا القول: فقال ولكن لم تثبت له رواية عن أحد منهم. وإنما روى عن عطاء بن أبى رباح»[3].

«وذكر الحافظ العامرى فى تأليفه الرياض المستطابة وكذلك ملخصـــه صالح بن صلاح العلائى ومن خطه نقلت أن الإمام أبا حنيفة رأى عبد الله بن الحرث بن جزء الصحابى وسمع منه قوله ﷺ : من تفقَّه فى دين الله كفاه الله همه ورزقه من حيث لا يحتسب»[4].

يقول ابن خلكان : «أدرك أبو حنيفة أربعة من الصحابة رضـــوان الله عليهم وهم: أنس بن مالك . وعبد الله بن أبى أوفى بالكوفة، وسَهْل بن سعد الساعدى بالمدينة وأبو الطفيل عامر بن واثلة بمكة ولم يلق أحداً منهم ولا أخذ

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١٣ ص٣٣٤.
(٢) المرجع السابق.
(٣) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب جـ ١ ص٢٢٧.
(٤) المرجع السابق.

عنه، وأصحابه – أى أبى حنيفة – يقولون: لقى جماعةً من الصـــحابة وروى عنهم. ولم يثبت ذلك عند أهل النقل»[1].

ميلاد مدرسة أبى حنيفة :-

فى سنة عشرين ومائة من الهجرة رحل عن دنيا النَّاس حماد أســـتاذ أبى حنيفة فصعدت روحه إلى بارئها فاجتمع النَّاس إلى ابنه إسماعيل وكان أغلـــب علم إسماعيل فى التاريخ والأدب فلم يلق النَّاس عنده كبير عناء فأخذ المجلس موسى بن كثير وكانوا يحتملونه وإن لم يكن فارها – أى حاذقاً مـــاهراً – فى الفقه لأنه لقى المشايخ الكبار ثم خرج حاجاً فجلـــس النَّـــاس إلى أبى بكـــر النهشلى فأبى فسألوا أبا بردة فأبى، وخلَّى بين المجلس وأبى حنيفة فوجدوا عنده ما لم يجدوا عند أحد منهم فى كل الأبواب نفاذاً وعلماً بارعاً فلزموه وتركـــوا ما سواه[2].

أجل: كان أبو حنيفة حاذقاً عالماً، ذا عقل ثاقب وفكر عميق يسبر أغوار الفقه، قال عنه صاحب «شذرات الذهب» : «كان من أذكياء بنى آدم جمـــع الفقه والعبادة والورع والسخاء وكان لا يقبل جوائز الدولة – أى الحُكَّام – بل ينفق ويؤثر من كسبه له دار كبيرة لعمل الخزّ وعنده صنَّاع وأمراء – رحمه الله– تعالى»[3].

ومجلس أبى حنيفة تظلله سحب الوقار، ويكتنفه الصمتُ، قال عنه ابن المبارك: «ما كان أوقر مجلس أبى حنيفة، كان يشبه الفقهـــاء وكـــان حســـن

(١) وفَيَات الأعيان و أنباء أبناء الزمان جـ ٥ ص٤٠٦.
(٢) أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام ص١٧.
(٣) شذرات الذهب جـ ١ ص٢٢٨.

السمت – أى الهيئة – حسن الوجه، حسن الثوب»[1].

أقوال العلماء فى أبى حنيفة :

لهذا الإمام حُسَّادٌ وحاقدون ويبدو أنه ابتلى بهذا فكل عصـــر تخـــرج الضفادع ترسل نقيقها إذا حلَّ الظلام، وحتى بعد رحيله تجد الكلاب تنـــبح على الأسد بعد ما مات ورحل عن الدنيا وهذا ليس من الشجاعة فى شـــىء وليس من أخلاق الإسلام. إن هذا العملاق جبل يهزأ بالعواصف ويصـــدها. «حدثنا أحمد بن منصور الرمادى حدثنا عبد الرزاق قال: شهدتُ أبا حنيفة فى مسجد الخَيْف فسأله رجلٌ عن شىء فأجابه. فقال رجل: إن الحسن يقول كذا وكذا، قال أبو حنيفة: أخطأ الحسن، قال: فجاء رجل مغطّى الوجه قد عصب على وجهه فقال: أنت تقول أخطأ الحسن يا ابن الزانية؟ ثم مضى فما تغيَّـــر وجهه ولا تلَوَّن ثم قال: إى والله أخطأ الحسن، وأصاب ابن مسعود» [2].

ومن شموخه ورد عنه (حدثنا حامد بن آدم قال: سمعت سهل بن مزاحم يقول: سمعت أبا حنيفة يقول : قال الله تعالى ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ، الَّذِينَ يَسْـــتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ قال: كان أبو حنيفة يكثر من قول: اللهم من ضـــاق بنا صدره فإن قلوبنا قد اتسعت له. ويقول: الحسن بن زياد اللؤلؤى: يقـــول أبو حنيفة: قولنا هذا رأى وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن مـــن قولنا فهو أولى بالصواب منا)[3].

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١٣ ص٣٣٦.

(٢) تاريخ بغداد جـ ١٣ ص٣٥٢.

(٣) المرجع السابق.

وبهذا يتبيَّن لنا أنَّ العملاق يثق بنفسه ويدرك صواب قوله. لقد عـــرف فريق من المخلصين فى هذه الأمة صواب فقه أبى حنيفة وهم جهابذة وقولهم فى الإمام أبى حنيفة يدحض ثرثرة الحاقدين عليه.

ويكفى قولهم فيه :

على بن المدينى

«حدثنا محمد بن أحمد بن يعقوب حدثنا جدى قال: سمعت علـــى بـــن المدينى يقول: كان يزيد بن زريع يقول: وذكر أبو حنيفة : هيهـــات طـــارت بفتياه البغال الشهب»(1).

الإمام الشافعى

«حدثنا محمد بن إبراهيم بن علىّ قال: سمعت حمزة بن على البصـــرى يقول: سمعت الربيع يقول: سمعت الشافعى يقول: النَّاس عيال على أبى حنيفة فى الفقه» وقال هارون بن سعيد: سمعت الشافعى يقول : ما رأيت أحداً أفقـــه من أبى حنيفة. وقال حرملة بن يحيى : سمعت محمد بن إدريس الشافعى يقول: النَّاس عيال على هؤلاء الخمسة : من أراد أن يتبحر فى الفقه فهو عيال علـــى أبى حنيفة. قال: وسمعته – يعنى الشافعى – يقول: كان أبو حنيفة ممن وُفِّق له الفقه، ومن أراد أن يتبحر فى الشعر فهو عيال على زهير بن أبى سلمى، ومن أراد أن يتبحر فى المغازى فهو عيال على محمد بن إسحاق، ومن أراد أن يتبحر فى النحو فهو عيال على الكسائى، ومن أراد أن يتبحر فى تفسير القرآن فهو عيال على مقاتل بن سليمان . وحدثنا أحمد بن الصلت الحمانى قال سمعت أبا

---

(1) المرجع السابق ص٣٤٦.

عبيدة يقول: سمعت الشافعى يقول: من أراد أن يعرف الفقه فليلزم أبا حنيفة وأصحابه، فإن النَّاس كلهم عيال عليه فى الفقه»[1].

الإمام مالك

«حدثنا محمد بن أيوب الضرير، حدثنا أحمد بن الصباح : سمعتُ الشافعى قال: قيل لمالك : هل رأيت أبا حنيفة؟ قال: نعم، رأيت رجلاً لو كلمك فى هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته»[2].

يحيى بن معين

«حدثنا أحمد بن عطية قال: سمعت يحيى بن معين يقول: القراءة عندى قراءة حمزة والفقه فقه أبى حنيفة، على هذا أدركت النَّاس . وقال: كم من شىء حسن قاله أبو حنيفة» [3].

سفيان بن عيينة

« حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدى قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: شيئان ما ظننت أنهما يجاوزان قنطرة الكوفة وقد بلغا الآفاق : قراءة حمزة، ورَأْىُ أبى حنيفة» [4].

الإمام وكيع

«حدثنا أحمد بن الصلت قال: سمعت مُليح بن وكيع يقول: سمعت أبى يقول: ما لقيت أحداً أفقه من أبى حنيفة ولا أحسن صلاة منه» [5].

---

(١) المرجع السابق. (٢) سير أعلام النبلاء جـ ٦ ص٣٩٩.
(٣) تاريخ بغداد جـ ١٣ ص٣٤٧. (٤) المرجع السابق ص٣٤٦. (٥) المرجع السابق ص٣٤٥.

يحيى القطان

«عن أبى جعفر بن أشرس يقول: سمعت يحيى بن معين يقول: سمعت يحيى القطان يقول: لا نُكَذِّبُ الله ربما آخذ بالشىء من رأى أبى حنيفة. وقال سعيد القاضى: سمعتُ يحيى بن معين يقول: سمعت يحيى بن سعيد القطان : لا نكذِّب الله ما سمعنا أحسن من رأى أبى حنيفة ولقد أخذنا بأكثر أقواله، قـال يحـيى ابن معين : وكان يحيى بن سعيد يذهب فى الفتوى إلى قول الكوفيين ويختـار قوله من أقوالهم ويتبع رأيه من بين أصحابه»[1] .

جعفر بن الربيع

«حدثنى محمد بن هانئ قال: سمعت جعفر بن الربيع يقول: أقمت على أبى حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول صمتاً منه فإذا سئل عن شىء من الفقه تفتح وسال كالوادى وسمعت له دوياً وجهارة بالكلام »[2].

عبد الله بن المبارك

لقد أردت أن أختم سلسلة هؤلاء العلماء الذين عرفوا قدر الإمـام أبى حنيفة وتأمَّلوا فقهه فشهدوا شهادة الحق فى الرجل وهناك كثير من العلمـاء غضضت الطرف عنهم، والحلقة الأخيرة هى عبد الله بن المبارك.

«حدثنا أبو وهب محمد بن مزاحم قال: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: رأيت أعبد النَّاس، ورأيت أورع [3] النَّاس، ورأيت أعلم النَّاس، ورأيت أفقه النَّاس، فأمَّا أعبد النَّاس فعبد العزيز بن أبى رواد، وأمَّا أورع النَّاس فالفضـيل

---

(١) المرجع السابق. (٢) المرجع السابق. (٣) أخوفهم من الله.

ابن عياض، وأمَّا أعلم النَّاس فسفيان الثورى، وأمَّا أفقه النَّاس فأبو حنيفة، ثم قال: ما رأيت فى الفقه مثله.

و حدثنا محمد بن مقاتل قال: سمعت ابن المبارك قال: إن كان الأثر قد عُرِف واحتيج إلى الرأى فرأى مالك، وسفيان، وأبى حنيفة .. وأبو حنيفة أحسنهم وأدقهم فطنة وأغوصهم على الفقه وهو أفقه. وقال ابن المبارك: إن كان أحد ينبغى له أن يقول برأيه فأبو حنيفة ينبغى له أن يقول برأيه» [1].

عبد الله بن المبارك يمدح أبا حنيفة بأبيات من الشعر،

قال:

رأيتُ أَبَا حنيفَةَ كلَّ يومٍ	يزيد نَبَالةً ويزيدُ خيرا
ويَنطِقُ بالصَّوَاب ويَصْطَفيه	إذا ما قال أهل الجور جورا
يُقايسُ مَنْ يقايسه بلُبٍّ	فمن ذا يجعلون له نظيرا
كفانا فَقْدُ حمَّادٍ وكانت	مصيبتنا به أمراً كبيرا
فَرَدَّ شماتة الأعداء عنّا	وأبدى بعده علماً كثيرا
رأيت أبا حنيفة حين يؤتى	ويُطلب علمُه بحراً غزيرا
إذا ما المشكلاتُ تَدافعتْها	رجالُ العلم كان بها بصيرا

و قال أبو القاسم، غسان بن محمد بن عبد الله بن سالم التميمى:

وضَعَ القياسَ أبو حنيفة كلَّه ... فأتى بأوضح حُجَّةٍ وقياس

(١) المرجع السابق ص٣٤٣.

وبنى علـــى الآثـــار رأسَ بنائـــه	فأتت غوامضُـــه علـــى الأســـاس
والنـــاس يتبعـــون فيهـــا قولـــه	لمـــا اســـتبان ضـــياؤُه للنـــاس

- **حُسَّاد الإمام أبى حنيفة :**

من الجهال من رمى الإمام أبا حنيفة بالاعتزال والإرجاء، وهم الحسَّـاد على أبى حنيفة رضي الله عنه وساقوا روايات مدسوسة على الرجل حتى النسائى ضعَّف الإمام مع أن مشايخه عدَّلوا أبا حنيفة وكل هذه الافتراءات يدحضها أقوال علماء الأمة وإجماعها على مذهبه. ولا نلتفت إلى كذبهم ولقد قيض الله للإمام أبى حنيفة من دافع عنه وكذَّب هؤلاء بالحجة والبرهان.

- **أبو حنيفة العابد :**

مما لا مراء فيه أن علم أبى حنيفة رضي الله عنه يكون ضياء له فى درب عبادته، ويعرف من هذا العلم كيف الوصول إلى الله عز وجل، ويعرف أخصر الطرق إليه، ويعرف بعلمه الطريق المعبَّدة التى لا تكتنفها المهالك، ولا يكون فيها زلل ولا انزلاق، ويعرف بعلمه مواقيت الاتصال التى تكون فيها النفحات وتكثر فيها الرحمات، ويعرف بعلمه طريق المخلصين الذى ينأى الشيطان عنه ولا يحاول السير فيه ويعرف بعلمه كيف يحارب إبليس ويزجره.

- **أعبد عابد فى الكوفة :**

رُوى أن «الحسن بن محمد الليثى قال: قدمتُ الكوفة فسألت عن أعبد أهلها فدفعت إلى أبى حنيفة، وعن سويد بن سعيد يقول: سمعت سفيان بن عيينة يقول: ما قدم مكة رجل فى وقتنا أكثر صلاة من أبى حنيفة، وعن على

ابن أحمد الفارسى حدثنا محمد بن فضيل. قال: قال أبو مطيع: كنت بمكة فما دخلت الطواف ساعة من ساعات الليل إلاّ رأيت أبــا حنيفــة وســفيان فى الطواف. وقال أبو عاصم النبيل: كان أبو حنيفة يُسمَّى الوتد لكثرة صلاته»[1].

● **قيامه الليل:**

أدرك أبو حنيفة أن الليل سكن تنام فيه العيون، ويتقلب فى مضــاجعهم النائمون، وتتجافى جنوب المخلصين عنها فيلجأون إلى الحى القيوم، أحَسُّــوا بالغربة فى دار الشقاء ففاتوا مضاجعهم ليتقرَّبوا إلى مولاهم، فطفقوا يصلون، وراحوا بحديث الله – القرآن – معه يتسامرون، ولا غرو فالله ﷻ قال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [2].

لقد انخرط أبو حنيفة فى سلك القائمين بالليل، ولقد عرض لأبى حنيفــة أمر فكره أن يُحْمَد بما لا يفعل وهو:

قال بِشْر بن الوليد: «حدثنى أبو يوسف، قال: بينا أنا أمشــى مــع أبى حنيفة إذ سمع رجلاً يقول لرجل هذا أبو حنيفة لا ينام الليل، فقال أبو حنيفة: لا يتحدث أحد عنى بما لا أفعل فكان يحيى الليل صلاة ودعاء وتضرعاً»[3].

و يبدو أن قول الرجل عن أبى حنيفة قد وضع أبا حنيفة فى حياء مــع خالقه، فاستحيا أن يقال فيه ذلك وهو يقصِّر فيحمد بما لا يفعل فأقســم أن يواظب على قيام الليل. ولقد وردت عنه روايات متعددة.

(١) تاريخ بغداد جـ ١٣ص٣٥٣ ، ٣٥٤.
(٢) سورة المزمل آية ٦.
(٣) تاريخ بغداد جـ ١٣ ص٣٥٥.

«حدثنا حفص بن عبد الرحمن، قال: كان أبو حنيفة يحيى الليل بقــراءة القرآن فى ركعة ثلاثين سنة، وقال زافر بن سليمان: كان أبو حنيفة يحيى الليل بركعة يقرأ فيها القرآن. وحدثنا حماد بن قريش قال: سمعت أسد بــن عمــر يقول: صلى أبو حنيفة فيما حفظ عليه صلاة الفجر بوضوء صــلاة العشــاء أربعين سنة، فكان عامة الليل يقرأ جميع القرآن فى ركعة واحدة. وكان يُسمع بكاؤه بالليل حتى يرحمه جيرانه»[1].

- **ختم القرآن فى الموضع الذى توفى فيه سبعة آلاف مرة [2]**

«حدثنا إسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة عن أبيه، قال: لما مات أبى ســألنا الحسن بن عمارة أن يتولى غُسله ففعل فلما غسله قال: رحمك الله وغفر لك، لم تُفطر منذ ثلاثين سنة ولم تتوسَّد يمينك بالليل منذ أربعين سنة وقد أتعبت من بَعْدك وفضحتَ القُرَّاء.

وحدثنى أحمد بن إبراهيم قال: سمعت منصور بن هاشم يقول كنا مــع عبد الله بن المبارك بالقادسية إذ جاءه رجل من أهل الكوفة فوقع فى أبى حنيفة فقال له عبد الله:

ويحك أتقع فى رجل صلى خمساً وأربعين سنة خمس صلوات على وضوء واحد؟ وكان يجمع القرآن فى ركعتين فى ليلة، وتعلمتُ الفقه الذى عندى من أبى حنيفة.

(١) المرجع السابق ص٣٥٤.
(٢) المرجع السابق.

وحدثنى سالم بن سالم عن أبى الجويرية قال: صحبت حماد بن سليمان ومحارب بن دثار وعلقمة بن مرثد وعون بن عبد الله وصحبت أبا حنيفة فما كان فى القوم رجل أحسن ليلاً من أبى حنيفة، لقد صحبته أشهراً فما منها ليلة وضع فيها جنبه. وحدثنا أبو يحيى الحمانى، عن بعض أصحابه أن أبا حنيفة كان يصلى الفجر بوضوء العشاء . وكان إذا أراد أن يصلى من الليل تزيَّن حتى يسرِّح لحيته.

وعن مسعر بن كدام، قال: أتيت أبا حنيفة فى مسجده فرأيته يصلى الغداة – الفجر والصبح – ثم يجلس للناس فى العلم إلى أن يصلى الظهر ثم يجلس إلى العصر، فإذا صلى العصر جلس إلى المغرب فإذا صلى المغرب جلس إلى أن يصلى العشاء فقلت فى نفسى : هذا الرجل فى هذا الشغل متى يتفرغ للعبادة؟ لأتعاهدنَّه الليلة، قال: فتعاهدته، فلما هدأ النَّاس خرج إلى المسجد فانتصب للصلاة إلى أن طلع الفجر. ودخل منزله ولبس ثيابه، وخرج إلى المسجد وصلى الغداة فجلس للناس إلى الظهر ثم إلى العصر، ثم إلى المغرب، ثم إلى العشاء، فقلت فى نفسى: إن الرجل قد تنشط الليلة لأتعاهدنه الليلة، فتعاهدته فلما هدأ النَّاس خرج فانتصب للصلاة ففعل كفعله فى الليلة الأولى فلما أصبح خرج إلى الصلاة، وفعل كفعله فى يوميه، حتى إذا صلى العشاء قلت فى نفسى إن الرجل لينشط الليلة والليلة لأتعاهدنَّه الليلة ففعل كفعله فى ليلتيه فلما أصبح جلس كذلك، فقلت فى نفسى لألزمنه إلى أن يموت أو أموت، قال: فلازمته فى مسجده، قال: ابن أبى معاذ فبلغنى أن مسعراً مات فى مسجد أبى حنيفة فى سجوده وقال حفص بن عبد الرحمن، قال: سمعت مسعر بن كدام يقول: دخلت ذات ليلة المسجد فرأيت رجلاً يصلى فاستحليت

قراءته فقرأ سبعاً، فقلت يركع، ثم قرأ الثلث، ثم قرأ النصف، فلم يزل يقـــرأ القرآن حتى ختمه كله فى ركعة، فنظرت فإذا هو أبو حنيفة. وقال النخعـــى حدثنا إبراهيم بن مخلد البلخى حدثنا إبراهيم بن رستم المروزى قال: سمعـــت خارجة بن مصعب يقول : ختم القرآن فى الكعبة أربعة من الأئمة: عثمان بن عفان، وتميم الدارى، وسعيد بن جبير، وأبو حنيفة.

- **ليل أبى حنيفة خوف وبكاء وتضرُع :**

رجل حركته فى الحياة محيطها المسجدُ وطريقُه وبيتُه فحركته لله تعـــالى، وجلوسه فى المسجد للعلم والعبادة رباط فى سبيل الله، ومع هذا كان يخشـــى الله تعالى، فإذا انصرف النَّاس إلى منازلهم بقى أبو حنيفة فى بيت الله فيشـــتغل بالله ومن شدة الخوف تزرف عيناه الدمع فيجرى متحدِّراً على وجنتيه منساباً على صدره وهو لا يدرى شيئاً عن حاله، فقلبه مع خالقه فَوَصَفَه الذين اطَّلعوا على حاله.

«حدثنا أحمد بن يونس قال: سمعت زائدة يقول: صليت مع أبى حنيفة فى مسجده عشاء الآخرة وخرج النَّاس ولم يعلم أنى فى المسجد وأردت أن أسأله عن مسألة من حيث لا يرانى أحد. قال: فقام فقرأ وقد افتتح الصلاة حتى بلغ هذه الآية ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ فأقمت فى المسجد أنتظـــر فراغه فلم يزل يرددها حتى أذَّن المؤذن لصلاة الفجر».

و قال أبو نعيم ضَرَّار بن صُرد سمعت يزيد بن الكُميت يقول: – وكان من خيار النَّاس – كان أبو حنيفة شديد الخوف من الله، فقرأ بنا علـــىُّ بـــن الحسين المؤذِّن ليلة فى عشاء الآخرة – إذا زلزلت – وأبو حنيفة خلفه، فلمـــا

قضى الصلاة وخرج النَّاس نظرت إلى أبي حنيفة وهو جالس يفكر ويتـــنفس، فقلت أقوم لا يشتغل قلبه بي، فلما خرجت تركتُ القنديل ولم يكن فيـــه إلاَّ زيت قليل، فجئت وقد طلع الفجر وهو قائم قد أخذ بلحية نفسه وهو يقول: يا من يجزى بمثقال ذرة خيراً خيراً، ويا من يجزى بمثقال ذرة شراً شراً، أجِـــرْ النعمان عبدك من النار، وما يقرِّب منها من السوء وأدخله في سعة رحمتـــك، قال: فأذَّنت فإذا القنديل يزهر وهو قائم. فلما دخلت قال: تريد أن تأخـــذ القنديل، قال: قلت قد أذَّنت لصلاة الغداة، قال: اكتم عليَّ ما رأيت. وركع ركعتى الفجر وجلس حتى أقمت الصلاة وصلَّى معنا الغداة على وضوء أول الليل.

و حدثنا القاسم بن معين أن أبا حنيفة قام ليلة بهذه الآية ﴿بَلِ السَّـــاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ يرددها ويبكى ويتضرع»[1].

قال عنه مسعر بن كدام «من جعل أبا حنيفة بينه وبين الله رجـــوت أن لا يخاف ولا يكون قد فرط فى الاحتياط لنفسه»[2].

(١) تاريخ بغداد جـ١٣ ص٣٥٧.

(٢) المرجع السابق ص٣٣٩.

القياس (هو حمل معلوم على معلوم لمساواته فى علّة حكمه، هكــذا فى جمع الجوامع)[1].

(وعُرِّف القياس فى «التلويح» بأنه مساواة فرع للأصل فى علّة حكمه، ولا يمكن القياس فى كل معلومين بل إذا كان بينهما أمـــر مشـــترك يوجـــب الاشتراك فى الحكم ويسمى علّة الحكم والقياس قسمان: جلى وخفى ويسمى الخفى بالاستحسان)[2].

- **القياس فى القرآن الكريم :-**

لقد ورد ذكر القياس فى القرآن الكريم مراراً منها:

١- قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [3]. فقاس البعث وإخــراج الموتى على إنزال المطر على الأرض الميتة الجدبة فأخرج به نباتـات كـثيرة. وبساتين وفيرة . كذلك البعث.

٢- قال الله تعالى : ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [4]. فهنا قياس حيث قاس الإعادة والبعث على الخلق الأول الذى بدأه، ولقــد وضــح ذلك فى قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [5].

---

(١) مجموع الردود الشاملة: لسيدى / محمد إبراهيم سالم ص٨.
(٢) المرجع السابق.
(٣) سورة الأعراف آية ٥٧.
(٤) الأعراف آية ٢٩.
(٥) سورة الروم آية ٢٧.

٣- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ، فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١). فلقد قاس إحياءَ الموتى على الرجل الذى قُتل فى بنى إسرائيل وضُرب ببعض البقرة التى اختلفوا فيها فأحياه اله فقاس الله البعث على إحيائه .

٤- قال تعالى : ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ (٢). فالإماء عليهن نصف الحدود التى على الحرائر فتجلد الزانية خمسين جلدة و يقاس العبد على الأمة.

- **القياس فى السُّنَّة :**

(عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن امرأة من جُهَينة جاءت إلى النبى ﷺ، فقالت: إن أمى نذرتْ أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها، قال: نعم، حُجِّى عنها أرأيت لو كان على أُمِّك دين أكنت قاضيتَهُ اقضوا الله فالله أحقُّ بالوفاء) (٣). فقاس أداء فريضة الحج على الدين.

و عَنْ أَبِي ذَرَ أَنّ نَاساً مِنْ أَصْحَابِ النّبِيّ ﷺ قَالُوا لِلنّبِيّ ﷺ : يَا رَسُولَ اللّه ذَهَبَ أَهْلُ الدّثُورِ بِالأُجُورِ. يُصَلّونَ كَمَا نُصَلّي. وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ. وَيَتَصَدّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ. قَالَ: "أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللّه لَكُمْ مَا تَصّدّقُونَ؟ إنّ بِكُلّ تَسْبِيحَةَ صَدَقَةً. وَكُلّ تَكْبِيرَة صَدَقَةٌ. وَكُلّ تَحْمِيدَة صَدَقَةٌ. وَكُلّ تَهْلِيلَةَ صَدَقَةٌ. وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوف صَدَقَةٌ. وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ. وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّه، أَيَأتي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْه فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلاَلِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ» رواه مسلم

---

(١) البقرة آية ٧٢ ، ٧٣.　(٢) النساء آية ٢٥ .　(١) رواه البخارى.

فقاس الرسول ﷺ وضع النطفة فى الحلال بوضعها فى الحرام بجامع المؤاخذة والإثابة فى كل منهما.. فالقياس ورد فى الكتاب والسنة.

- **درء شبهة :**

قد يقول قائل : إن الله تعالى قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ (١).

قد يقول قائل: لو قلنا بالقياس لكان لابد أن يكون لإظهار حكم لم يكن معلوماً فكان القياس موجباً لكمال ما لم يكن كاملاً فى زمنه ﷺ ؟

والجواب على ذلك: أن المراد بإكمال الدين المذكور فى الآية الشريفة هو تحقيق قواعد العقائد وأصول الأحكام وإيضاح قواعد الاجتهاد .

أمَّا القياس فلا يقدح فى الآية فلقد قاس الصحابة «نقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لعامله أبى موسى الأشعرى : ثم الفهم، ثم الفهم فيما أُدْلى به إليك مما ورد عليك مما ليس فى قرآن ولا سنَّة ثم قايس بين الأمور عند ذلك واعرف الأمثال ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق»(٢).

(ونقل عن الإمام علىٍّ رضي الله عنه قوله: «يعرف الحق بالمقايسة عند ذوى الألباب»، ومما يؤكد مسألة القياس والعمل به لدى الصحابة – رضى الله عنهم – ما ورد من أن سيدنا أبا بكر رضي الله عنه ورَّث أم الأم دون أم الأب، فقال له بعض الأنصار : لقد ورثت امرأة من ميِّت لو كانت هى الميتة لم يرثها، وتركت امرأة لو كانت هى الميتة ورث جميع ما تركت فرجع إلى التشريك

---

(١) سورة المائدة آية ٣.

(٢) مجموعة الردود الشاملة ص١٠.

بينهما فى الثلث. وورد أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يشك فى قود القتيل الذى اشترك فى قتله سبعة، فقال له سيدنا علىٌّ رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه : يا أمــير المؤمنين أرأيت لو أن نفراً اشتركوا فى سرقة أكنت تقطعهم، قال: نعم، قـــال فكذلك وهو قياس القتل على السرقة»[1].

وقفة تأمل

إذا كان الأمر كذلك فهل أبو حنيفة مبتدع كما قالوا؟

والجواب على ذلك أن أبا حنيفة لم يكن مبتدعاً، ومن الذين قالوا بذلك الأوزاعى ولَمّا عرف غوص أبى حنيفة فى الفقه، توقف عن ذلك.

فعن «حمدون بن أُبيِّ الطوسى يقول: سمعت عبد الله بن المبارك يقـــول: قدمتُ الشام على الأوزاعى فرأيته ببيروت، فقال لى: يا خراسانى مـــن هـــذا المبتدع الذى خرج بالكوفة يكنى أبا حنيفة ؟ فرجعت إلى بيتى فأقبلت علـــى كتب أبى حنيفة فأخرجت منها مسائل من جياد المسائل وبقيتُ فى ذلك ثلاثة ايام فجئتُ يوم الثالث وهو مؤذِّن مسجدهم وإمامهم والكتاب فى يدى فقال: أى شىء هذا الكتاب؟ فناولته فنظر فى مسألة منها وقَّعت عليها قال: النعمان: فما زال قائماً بعد ما أذَّن حتى قرأ صدراً من الكتاب ثم وضع الكتاب فى كُمِّه ثم أقام وصلى. ثم أخرج الكتاب حتى أتى عليها. فقال لى يا خراســـانى مـــن النعمان بن ثابت هذا؟

قلت : شيخ لقيتُه بالعراق، فقال: هذا نبيل من المشايخ اذهبْ واستكثر

(١) المرجع السابق ص١٠ ، ١١.

منه. قلت: هذا أبو حنيفة الذى نهيت عنه»[1].

«و حدثنا على بن المدينى قال: سمعتُ عبد الرزَّاق يقول: كنت عند معمر فأتاه ابن المبارك، فسمعنا معمراً يقول: ما أعرف رجلاً يحسن يتكلم فى الفقه أو يسعه أن يقيس ويشرح لمخلوق النجاة فى الفقه أحسن معرفة من أبى حنيفة. ولا أشفق على نفسه من أن يدخل فى دين الله شيئاً من الشك من أبى حنيفة»[2].

- **عقل أبى حنيفة يثير قضايا ويناقشها:**

« حدثنا إبراهيم بن سليمان المروزى – قدم علينا – قال قرئ على عبد الله بن على القزاز عن أحمد بن إسحاق عن النضر بن محمد قال: دخل قتادة الكوفة ونزل فى دار أبى بردة فخرج يوماً وقد اجتمع إليه خلق كثير:

فقال قتادة: والله الذى لا إله إلاَّ هو ما يسألنى اليوم أحد عن الحلال والحرام إلاَّ أجبته . فقام إليه أبو حنيفة فقال: يا أبا الخطاب ما تقول فى رجل غاب عن أهله أعواماً فظنت امرأته أن زوجها مات فتزوجت، ثم رجع زوجها الأول ما تقول فى صداقها؟

و قال أبو حنيفة لأصحابه الذين اجتمعوا إليه: لئن حدَّث بحديث ليكذبن، ولئن قال برأى نفسه ليخطئن.

فقال قتادة: ويحك أوقعت هذه المسألة؟

قال أبو حنيفة: لا، قال فلم تسألنى عما لم يقع؟

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١٣ ص٣٣٨.

(٢) المرجع السابق ص٣٣٩.

قال أبو حنيفة: إنا نستعد للبلاء قبل نزوله فإذا ما وقع عرفنا الدخول فيه والخروج منه.

قال قتادة: والله لا أحدثكم بشئ من الحلال والحرام، سلونى عن التفسير. فقام إليه أبو حنيفة فقال له: يا أبا الخطاب ماتقول فى قول الله تعالى ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (١).

قال قتادة: نعم، هذا آصف بن برخيا بن شمعيا، كاتب سليمان بن داود، كان يعرف اسم الله الأعظم.

فقال أبو حنيفة: هل يعرف الاسم سليمان؟

قال قتادة: لا.

قال أبو حنيفة: فيجوز أن يكون فى زمن نبىٍّ مَنْ هو أعلم من النبى؟

فقال قتادة: والله لا أحدثكم بشىء من التفسير، سلونى عما اختلف فيه العلماء. فقام إليه أبو حنيفة فقال:

يا أبا الخطاب أمؤمن أنت؟ قال: أرجو.

قال أبو حنيفة: ولِمَ؟ قال: لقول إبراهيم عليه السلام ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٢).

فقال أبو حنيفة: فهلاَّ قلت كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى﴾ (٣)، فهلا قلتَ : بلى.

---

(١) سورة النمل آية ٤٠.

(٢) سورة الشعراء آية ٨٢.

(٣) سورة البقرة آية ٢٦٠.

فقام قتادة مغضباً، ودخل الدار وحلف أن لا يحدثهم» [1].

فمن وقع فى أبى حنيفة فهو رجل لا يفقه فى نصوص الإسلام شيئاً، ولا يفهم ما قاله أبو حنيفة ولا يعقل مسائله ولا يميِّز بين الغث والسمين. ومع هذا هو حاقد، وهذا الصنف كالجليد يذوب من الشمس فيتبدد.

- **تلاميذ الإمام أبى حنيفة :**

أخذ العلم عن أبى حنيفة خلق كثير منهم: «إبراهيم بن طهمان عالم خراسان وأبيض بن الأغر المِنْقَرى، وأسباط بن محمد، وإسحاق الأزرق، وأسد بن عمرو البجلى، وإسماعيل بن يحيى الصيرفى، وأيوب بن هانئ، والجارود بن يزيد النيسابورى، وجعفر بن عون، والحارث بن نبهان، وابنه حماد، وزُفَرُ بن الهذيل التميمىّ، وشعيب بن إسحاق، والصلت بن حجاج وعبد الله بن يزيد المقرئ وعبد الله بن المبارك، وعبيد الله بن الزبير القرشى، ومحمد بن الحسن الشيبانى، ويزيد بن هارون، وأبو سعد الصاغانى، والقاضى أبو يوسف» [2]، وهناك خلق كثير لم نذكرهم واقتصرنا على هؤلاء.

- **ميلاد بعض المسائل الفقهية على لسان أبى حنيفة :**

كل هذه المسائل ولدت فى ظروفها وانبثقت عن محاورة أو عن حدث أو عن موقف من المواقف ولها سِمَتُها التى تميِّزها:

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١٣ ص٣٤٨ ، ٣٤٩.

(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٦ ص٣٩٣ ، ٣٩٤.

- **مسألة القصّار[1] وغيرها من نسج أبى حنيفة :-**

من تلاميذ أبى حنيفة أبو يوسف فنهل من فقه شيخه أبى حنيفة فظن أن ما أخذه عنه جعله يجلس فى مجلس كشيخه، فذهب التلميذ إلى سارية من سوارى المسجد وطفق يرسل علمه.

- **رسالة أبى حنيفة لتنبيه تلميذه :**

أرسل إليه أبو حنيفة رجلاً فسأله عن خمس مسائل:

الأولى: أعطى رجلٌ قصّاراً ثوباً ليصلحه فجحده وأنكره وقال له: لم تعطنى ثوباً ثم استيقظ ضميره وجاء بالثوب لصاحبه مقصوراً.

أيستحق القصّار الأجر أم لا؟.

«دعا أبو حنيفة رجلاً كان له عنده قدر فقال: سر إلى مجلس يعقوب فقل له: ماتقول فى رجل دفع إلى القصار ثوباً ليقصره بدرهم فصار إليه بعد أيام فى طلب الثوب فقال له القصار: مالك عندى شىء وأنكره ثم إن ربَّ الثوب رجع إليه فدفع إليه الثوب مقصوراً. أَلَهُ أجرة؟ . فإن قيل : له أجرة فقل أخطأتَ. وإن قال: لا أجرة له فقل: أخطأت . فصار إليه فسأله فقال أبو يوسف: له الأجرة. فقال : أخطأتَ. فنظر ساعة ثم قال: لا أجرة له. فقال: أخطأت . فقام أبو يوسف من ساعته، فأتى أبا حنيفة، فقال له: ما جاء بك إلاَّ مسألة القصار؟ قال: أجل. قال: سبحان الله من قعد يفتى النَّاس وعقد مجلساً يتكلّم فى دين الله وهذا قدره لا يحسن أن يجيب فى مسألة من الإجارات . فقال: يا أبا حنيفة علمنى»[2].

---

(١) القصار: المبيِّض للثوب.

(٢) تاريخ بغداد جـ ١٣ ص٣٤٩ ، ٣٥٠.

- **أبو حنيفة ينقد أبا يوسف :**

قال أبو حنيفة: «إن قصَّره بعد ما غصبه فلا أجرة له لأنه قصره لنفسه، وإن كان قصره قبل أن يغصبه فله الأجرة لأنه قصره لصاحبه»[1].

أبو حنيفة يقول للدنيا: «من ظن أنه يستغنى عن التعلم فليبك على نفسه»[2].

- **مسائل أخرى لأبى يوسف :**

المسالة الأولى:

هل الدخول فى الصلاة بالفرض أم بالسنة؟

قال رسول أبى حنيفة لأبى يوسف: «هل الدخول فى الصلاة بالفرض أم بالسنة»[3] ؟

فقال أبو يوسف: بالفرض. فقال له رسول أبى حنيفة : أخطأت.

فقال أبو يوسف : بالسنة.

فقال رسول أبى حنيفة : أخطأت

فتحير أبو يوسف.

فقال رسول أبى حنيفة: بهما، لأن التكبير فرض ورفع اليدين سنة[4].

المسالة الثانية :

قال رسول أبى حنيفة لأبى يوسف: «طير سقط فى قدر على النار فيه لحم ومرق، هل يؤكلان – أى اللحم والمرق – أم لا ؟

(١) و (٢) المرجع السابق .
(٣) شذرات الذهب جـ ١ ص٢٢٨ ، ٢٢٩.
(٤) المرجع السابق بتصريف.

فقال أبو يوسف : يؤكلان.

قال له رسول أبى حنيفة : أخطأت.

فقال أبو يوسف: لا يؤكلان.

قال له رسول أبى حنيفة : أخطأت.

ثم قال له رسول أبى حنيفة: إن كان اللحم مطبوخاً قبل سقوط الطير يُغسل ثلاثاً ويؤكل وتُرمى المرقة وإلا يرمى الكل[1].

المسألة الثالثة :

قال رسول أبى حنيفة: مسلم له زوجة ذمِّية ماتت وهى حامل منه تدفن فى أى المقابر؟

فقال أبو يوسف: تدفن فى مقابر المسلمين.

قال له رسول أبى حنيفة: أخطأت.

فقال أبو يوسف: فى مقابر أهل الذمة.

قال له رسول أبى حنيفة: أخطأت. فتحير أبو يوسف.

فقال رسول أبى حنيفة: تدفن فى مقابر اليهود لأنهم يُوجِّهون قبورهم إلى القبلة. ولكن يُحَوَّل وجهها عن القبلة حتى يكون وجه الولد إلى القبلة لأن الولد فى البطن يكون وجهه إلى ظهر أمه[2].

المسألة الرابعة :

قال رسول أبى حنيفة: أم ولد لرجل تزوجت بغير إذن مولاها، هل تجب العدة من المولى؟

---

(١) و (٢) المرجع السابق بتصريف.

فقال أبو يوسف: تجب العدَّة.

قال له رسول أبي حنيفة : أخطأت.

فقال رسول أبي حنيفة: إن كان الزوج دخل بها لا تجب وإلا وجبت[1].

اعتراف أبي يوسف بجهله :

قال أبو يوسف بعد أن استمع إلى تلك المسائل من رسول أبي حنيفة وإجابتها:

«تَزَبَّبتَ قبل أن تحصرم» [2]، والحصْرِم: ثمر العنب قبل النضج.

ومعنى قول أبي يوسف: أى صرتُ زبيباً قبل أن أنضج وأتعلم.

مسالة أم عِمران التي أهاجت الرأي العام في مدرسة أبي حنيفة

«حدثنا نصر بن يحيى البلخي، حدثنا الحسن بن زياد اللؤلؤى قال: كانت ها هنا امرأة يقال لها أم عمران مجنونة وكانت جالسة فى الكُنَاسَة فمر بها رجل فكلمها بشيء فقالت له : يا ابن الزانيين . وابن أبي ليلى القاضي حاضر يسمع ذلك فقال للرجل: أدخلها المسجد. وأقام عليها حدَّين حدّاً لأبيه وحدّاً لأمه فبلغ ذلك أبا حنيفة فقال : أخطأ ابن أبي ليلى فى ستة مواضع:

الأول : أقام الحد فى المسجد. ولا تقام الحدود فى المساجد.

الثاني: ضربها وهى قائمة والنساء يضربن قعوداً.

الثالث: ضَرَبَ لأبيه حدّاً ولأُمِّه حدّاً ولو أن رجلاً قذف جماعة كان

---

(١) المرجع السابق بتصريف.

(٢) المرجع السابق.

عليه حدٌّ واحد.

الرابع: جمع بين حدَّين ولا يُجمع بين حدين حتى يخف أحدهما.

الخامس: أقام الحدَّ على مجنونة، والمجنونة ليس عليها حد.

السادس : أقام الحد لأبويه وهما غائبان لم يحضرا فيدَّعيان»[1].

ثارت الأمواج بنقد أبي حنيفة لابن أبي ليلى، فبلغته فدخل على الأمير فشكا إليه فحجر على أبي حنيفة، وقال: لا يفتي. فلم يُفْتِ أياماً حتى قدم رسول من وليِّ العهد فأمر أن يعرض على أبي حنيفة مسائل حتى يُفتي فيها. فأبى أبو حنيفة وقال: أنا محجور عليَّ. فذهب الرسول إلى الأمير. فقال الأمير: قد أذنت له فقعد فأفتى[2].

- **دفاع أبي حنيفة عن عثمان بن عفان رضي الله عنه :**

كان بالكوفة رجل يرمي عثمان بن عفان بأنه كان يهودياً فأتاه أبو حنيفة:

قال أبو حنيفة: أتيتك خاطباً.

قال الرجل : لمن؟

قال أبو حنيفة: لابنتك . رجل شريف، غني بالمال، حافظ لكتاب الله، سخيٌّ، يقوم الليلة في ركعة، كثير البكاء من خوف الله.

قال الرجل : في دون هذا – أي في أقل من هذا – مقنع يا أبا حنيفة.

قال أبو حنيفة: إلاَّ أن فيه خصلة .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١٣ ص٣٥١ بتصريف.

(٢) انظر السابق.

قال الرجل :وما هى؟

قال أبو حنيفة: يهودى .

قال الرجل : سبحان الله تأمرنى أن أُزَوِّج ابنتى من يهودى؟

قال أبو حنيفة: لا تفعل؟

قال الرجل : لا

قال أبو حنيفة: فالنبى زوج ابنتيه من يهودى -يريد عثمان بن عفان - .

قال الرجل : أستغفر الله العظيم إنى تائب إلى الله ﷻ [1].

- **مسألة الاستثناء فى اليمين**

دعا الخليفة المنصور أبا حنيفة لزيارته فذهب إليه وجلس معه ووقف الربيع على المجلس وهو حاجب المنصور وهو رجل يحمل فى قلبه العداوة لأبى حنيفة.

قال الربيع : يأأمير المؤمنين : هذا أبو حنيفة يخالف جدَّك . كان عبد الله ابن عباس يقول: إذا حلف على يمين ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين جاز الاستثناء. وقال أبو حنيفة لا يجوز الاستثناء إلاَّ متصلاً باليمين.

فقال أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين إن الربيع يزعم أنه ليس لك فى رقاب جندك بيعة.

قال المنصور: وكيف؟

قال أبو حنيفة: يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم.

---

(١) انظر: تاريخ بغداد جـ ١٣ ص٣٦٤.

فضحك المنصور وقال: يا ربيع لا تعرض لأبى حنيفة.

فلما خرج أبو حنيفة قال له الربيع: أردت أن تشيط بدمى يا أبا حنيفة؟

قال أبو حنيفة: لا، ولكنك أردت أن تشيط بدمى فخلصتك وخلّصت نفسى[1].

- **أبو حنيفة يتخلّص من قيد عدوه ويربطه به :**

كان أبو العباس الطوسىّ سىّء الرأى فى أبى حنيفة ويكنُّ لـه عـداوة شديدة وكان أبو حنيفة يعرف ذلك عنه. فدخل أبو حنيفة يوماً على أبى جعفر المنصور أمير المؤمنين وكثر النّاس وكان بينهم أبو العباس الطوسىّ.

فقال الطوسى : اليوم أقتل أبا حنيفة . فأقبل على أبى حنيفـة والنّـاس يستمعون إلى كلامه وهم بحضرة أمير المؤمنين،

فقال: يا أبا حنيفة: إن أمير المؤمنين يدعو الرجل منا فيأمر بضرب عنقه لا يدرى ما هو أيسعه أن يضرب عنقه؟

فقال أبو حنيفة: يا أبا العباس : أمير المؤمنين يأمر بالحق أو بالباطل؟

قال أبو العباس: يأمر بالحق.

قال أبو حنيفة: أنفذ الحق حيث كان ولا تسل عنه.

ثم قال أبو حنيفة لمن قرب منه: إن هذا أراد أن يوثقنى فربطته[2].

- **أبو حنيفة ينقذ نفسه ومدرسته من القتل**

جلس الإمام على مجلسه وتلاميذه حوله يجود الشيخ بالدُّرر ويتخطفها

---

(١) انظر: المرجع السابق.

(٢) انظر : المرجع السابق.

التلاميذ، كل واحد يحاول أن يملأ عقله بتلك الدرر، شُغل الأستاذ بصـــناعة تلك الدرر فيطلقها مزينة بالحجة والإقناع وشغل تلاميـــذ المدرســـة بقبولهـــا وتحليلها فتقطعت علائقهم بالدنيا وبأهلها وفى خضم هذا الانخراط فى العلـــم يدخل عليهم طائفة من الخوارج [1]، شاهرين السيوف، فقالوا: يا أبا حنيفـــة نسألك عن مسألتين فإن أجبت نجوت وإلاَّ قتلناك.

قال أبو حنيفة : أغمدوا سيوفكم فإنَّ برؤيتها يُشغل قلبى.

قالوا: وكيف نغمدها ونحن نحتسب الأجر الجزيل بإغمادها فى رقبتك؟

قال أبو حنيفة: سلوا إذن.

قالوا: جنازتان بالباب إحداهما رجل شرب الخمر حـــتى ثمـــل فمـــات سكران. والأخرى امرأة حملت من الزنا فماتت فى ولادتها قبل التوبـــة أهمـــا مؤمنان أم كافران؟

قال أبو حنيفة: مِن أي فرقة كانا؟ من اليهود؟

قالوا: لا .

قال أبو حنيفة : من النصارى؟

قالوا: لا.

قال: من المجوس؟

قالوا: لا.

قال أبو حنيفة : ممَّن كانا؟

قالوا: من المسلمين.

---

(١) من مبادئهم مرتكب الكبيرة كافر ومخلَّد فى النار.

قال أبو حنيفة: قد أجبتم.

قالوا: هما فى الجنة أم فى النار؟

قال أبو حنيفة: أقول فيهما ما قاله خير منى فيمن هو شر منهما، قال الخليل عليه السلام فى قومه المشركين: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [1]. وقال عيسى عليه السلام ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [2] . فنكسوا رءوسهم وانصرفوا [3].

- **عصفة أخرى بالمدرسة يصُدُّها أبو حنيفة**

الخوارج يكفّرون أهل السنة فى كثير من أمور الدين وليس لهم أدلة فى ذلك بل لهم شُبه لا تصل إلى الدليل فدخلوا يوماً المسجد ووصلوا إلى مقر المدرسة داخل المسجد، وهموا بقتل إمام المدرسة وتلاميذها فتملك الفزع التلاميذ فقال أبو حنيفة: لا تبرحوا فجاء الخوارج حتى وقفوا عليهم.

فقال الخوارج: ما أنتم؟

قال أبو حنيفة: نحن مستجيرون.

فقال أمير الخوارج: دعوهم وأبلغوهم مأمنهم واقرءوا عليهم القرآن فقرءوا عليهم القرآن وأبلغوهم مأمنهم[4].

و بهذا يكون أبو حنيفة قد عصم دمه ودم تلاميذه فإنهم فى نظر الخوارج كفرة، والله قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ

---

(١) سورة إبراهيم آية ٣٦.

(٢) سورة المائدة آية ١١٨.

(٣) أبو حنيفة بطل الحرية و التسامح فى الإسلام ص٩٣ بتصريف.

(٤) راجع تاريخ بغداد جـ ١٣ ص٣٦٦.

اللّه ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [1]. قالها أبو حنيفة مستجيرون ولم يقل مشركون مستجيرون، كما قالها واصل بن عطاء لهم.

- **سفيان الثورى يأخذ بفتوى أبى حنيفة :**

كان سفيان الثورى يُفتى بجواز الوضوء بما قد توضأ به الغير فلما سمع أن أبا حنيفة لا يجيز ذلك قال سفيان لِمَ؟ قالوا له : إن أبا حنيفة يقول: إنه ماء مستعمل فجاء بعد ذلك بأيام رجل فسأله عن الوضوء بماء قد استعمله غيره، فقال سفيان: لا يُتوضّأ به لأنه ماء مستعمل فرجع فيه إلى قول أبي حنيفة [2].

- **دقة أبى حنيفة فى الفتوى وتوخى الورع :**

كان الإمام أبو حنيفة يرشد تلاميذه ويقول لهم : «من وصف خُفَّ امرأة صغيرة أو كبيرة فقد وصف قدمها ومن وصف قدمها لم يكن عدلاً. وإذا قامت المرأة من موضعها فلا تجلس فيه حتى يبرد» [3].

- **أبو حنيفة يفحم القاضى «ابن شُبرُمة» :**

مات رجل وأوصى قبل موته إلى أبي حنيفة وكان أبو حنيفة غائباً، فقدم أبو حنيفة وارتفع إلى ابن شبرمة وأتى أبو حنيفة بالبينة وهى شاهدان شهدا على صحة وصية الرجل لأبي حنيفة.

فقال ابن شبرمة: يا أبا حنيفة : احلف أن شهودك شهدوا بحق .

قال أبو حنيفة: ليس عليَّ يمين، فلقد كنت غائباً.

قال ابن شبرمة: ضلَّت مقاليدك يا أبا حنيفة.

---

(١) سورة التوبة آية ٦. (٢) المرجع السابق ص٤٤ ، ٤٦.

(٣) أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام ص٦٤.

وقد سبقت الإشارة إلى سر هذا النهى من الإمام أبى حنيفة .. وذلك فى مقدمة كتابنا هذا ص٤ .

قال أبو حنيفة: ضلّت مقاليدى؟

ما تقول يا ابن شبرمة فى أعمى شُجَّ – جُرِحَ – فشهد له شـــاهدان أن فلاناً شجَّه، هل على الأعمى يمين؟

إن شهوده شهدوا بالحق ولا يرى [1].

وكان من طبيعة أبى حنيفة أنه كان يكره الحلف، فعن أحمد بن المغلـــس الحمانى أنه قال: «حدثنا مليح بن وكيع حدثنا أبى، قال: كان أبو حنيفة قـــد جعل على نفسه أن لا يحلف بالله فى عُرْض كلامه وإلاَّ تصدق بدرهم فحلف فتصدق به ثم جعل على نفسه إن حلف أن يتصدق بدينار، فكان إذا حلـــف صادقاً فى عُرض كلامه تصدق بدينار، وكان إذا أنفق على عياله نفقة تصدق بمثلها وكان إذا اكتسى ثوباً جديداً كسى بقدر ثمنه الشيوخ والعلماء، وكان إذا وُضِعَ بين يديه الطعام أخذ منه فوضعه على الخبز حتى يأخذ منـــه بقـــدر ضعف ما كان يأكل فيضعه على الخبز ثم يعطيه إنساناً فقيراً . فـــإن كـــان فى الدار من عياله إنسان يحتاج إليه دفعه إليه وإلا أعطاه مسكيناً [2].

- **من مداعبات أبى حنيفة الفقهية :**

روى أن رجلاً أتى أبا حنيفة بالليل فقال أدركنى قبل الفجر وإلاَّ طلقت امرأتى، قال أبو حنيفة وما ذاك؟ قال: تركتْ زوجتى الليلة كلامى فقلت لهـــا إن طلع الفجر ولم تكلمينى فأنت طالق ثلاث. وقد توسَّلتُ إليها بكل أمر أن تكلمنى فلم تفعل. قال أبو حنيفة : اذهب فَمُرْ مؤذِّنَ المسجد أن ينزل فيؤذن

---

(١) انظر : تاريخ بغداد جـ ١٣ ص٣٨٤.

(٢) راجع : المرجع السابق ص٣٥٨.

قبل الفجر فلعلها إذا سمعته أن تكلمك واذهب إليها وناشدها أن تكلمك قبل أن يؤذِّن المؤذن. ففعل الرجل وجلس يناشدها وأذَّن المؤذن، فقالت: طلع الفجر وقد تخلصتُ منك. قال: قد كلمتيني قبل الفجر وتخلص من اليمين [1].

- **أبو يوسف وعاءٌ لعلم أبي حنيفة:**

رأى الإمام أبو حنيفة أن التلاميذ امتداد لأساتذتهم، وأنهم مدرسة لامتداد مدرسة أستاذهم، فكان يهتم بتلاميذه جميعاً بيد أنه كان من بين تلاميذه تلميذ نجيب هو أبو يوسف لمح فيه أبو حنيفة شيئاً لم يَرَه في غيره فاهتم به ولما أراد هذا التلميذ الانشغال بالحياة وبالعيش وانصرف عن مجلس أبي حنيفة تتبعه وردَّه وكفاه جهد العيش ونترك الحديث ليتحدث عن نفسه مع أبي حنيفة رضي الله عنه «كنتُ أطلب الحديث والفقه وأنا رثُّ الحال فجاءني أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة فانصرفت معه فقال يا بني لا تمدد رجلك مع أبي حنيفة فإن أبا حنيفة خبزه مستو، وأنت تحتاج إلى المعاش فقصَّرت عنه كثيراً في الطلب وآثرت طاعة أبي، فتفقدني أبو حنيفة وسأل عني فجعلتُ أتعاهد مجلسه فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري قال: ما شغلك عنا؟ قلت: الشغل بالمعاش وطاعة والدي. فجلست ولمّا انصرف النّاس دفع إليَّ صُرَّة، وقال: استمتع بها، فإذا فيها مائة درهم. وقال لي : الزم الحلقة فإذا فرغتْ هذه فأعلمني، فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إليَّ مائة أخرى ثم كان يتعهدني وما أعلمته بخلَّة قط ولا أخبرته بنفاد شيء وكأنه كان يخبر بها حتى استغنيت وتمولت».
ويقول أبو يوسف: «وكان يعولني وعيالي عشرين سنة وإذا قلت له ما رأيتُ

(1) راجع: أبو حنيفة بطل الحرية و التسامح في الإسلام ص١٠٧.

أجودَ يقول: كيف لو رأيتَ حمَّاداً – شيخ أبي حنيفة – وما رأيت أجمع للخصال المحمودة منه [1] » [2]. وكم من التلاميذ لم يعلنوا أياديه عليهم والقليل قد أعلنها كأبي يوسف وأعلنها الحسن بن زياد إذ كان يلازم أبا حنيفة وأبوه يرهقه بقوله : يا بُنى لنا بنات وليس لنا ابن غيرك فاشتغل بهن. وكان أبو حنيفة يُدرُّ عليه أخلاف الرزق حتى تعلَّم .و أعلنها يوسف بن خالد السَّمتى، واجتمعت كلمة الرواة على أنه كان يصبر على من يعلمه، وإن كان فقيراً أغناه، وأنزل عليه وعلى عياله صيِّباً من العطاء حتى يتعلم فإذا تعلم قال له : قد وصلت إلى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام. وأجمعوا أنه كان معروفاً بالإفضال عليهم [3].

- **علم أبى حنيفة يجرى سلسلاً على لسان أبى يوسف :**

كان أبو يوسف فى السابعة والثلاثين من عمره عندما رحل أبو حنيفة عن دنيا النَّاس وآلت رياسة الحلقة إلى زفر ولم يغضب أبو يوسف فلقد كان زفر عابداً ورعاً، بيد أن أبا يوسف تولَّى القضاء للخلفاء الثلاثة : المهدى والهادى والرشيد. وبلغ مجده غايته فى عصر الرشيد إذ نقلت له وظيفة قاضى القضاة، فكان هو الذى يوصى الخليفة بتعيين القضاة فى شتى الدولة وكان يؤاكله ويحج معه ويؤمُّه ويعلِّمه ويدخل عليه راكباً وكانت تتقدم به منزلته كلما تقدَّم به العمر. ولقد كان العلم سبباً فى غناه فلقد بلغت تركته مليونين

(١) الضمير يعود على أبى حنيفة.
(٢) أبو حنيفة بطل الحرية و التسامح فى الإسلام ص١٢٣.
(٣) المرجع السابق ص١٢٤.

وصلى عليه الرشيد وأمر بدفنه فى مقابر قريش حيث دفن من بعـــده ولـــده الأمين ثم زوجته زبيدة أم الأمين.

- **أبو يوسف يجعل فقه أبى حنيفة مذهب الدولة :**

كان أبو يوسف صغير الجسد نحيفاً يكاد يغرق فى فراشه بيْدَ أنه كلـــه عقل سمعه سامع ورأى جسده فقال: «لو شاء الله أن يجعل العلم فى جوف طير لفعل، لكنه كان يحفظ خمسين أو ستين حديثاً فى السماع الواحـــد ثم يقولهـــا فيمليها على الناس»[1].

لقد أُتيح لفقه الإمام أبى حنيفة على يد أبى يوسف أن يكون هو مذهب الدولة فَسَادَ هذا المذهبُ فى القضاء والإفتاء وجلس أتباع أبى حنيفـــة علـــى كراسى القضاء وطفق النَّاس يسمون مذهب أبى حنيفة بمـــذهب الســـلطان لانتشاره فكما قال ابن حزم: «مذهبان انتشرا فى بدايـــة أمرهمـــا بالرياســـة والسلطان: الحنفى بالعراق والمالكى بالأندلس»[2]. أضاف أبو يوسف للفقـــه الحنفى بُعْداً جديداً هو البعد العملى الذى يتجاوب مع تطور الحياة ولا سيما وقد قطعت الدولة أكبر أشواطها فى الحضارة وبسط أبو يوسف سلطانه فى كل مكان وعيَّن ابنه يوسف قاضياً على غرب بغداد وجعله إماماً للحجيج وعندما حج الرشيد وفى صحبته أبو يوسف كان الإمام هو يوسف بـــن أبى يوســـف وكان شُريك خصم أبى حنيفة يحج فى نفس السنة وسأل عمن يصلى بالنـــاس فقالوا: يوسف بن أبى يوسف قال: الآن طاب الموت»[3].

(١) المرجع السابق ص١٣٠.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق ص٣١.

و لقد برز سلطان أبي يوسف على سلطان الرشيد ولا غرو فسلطان العلم فى أمة تعرف قدر العلم هو الذى يعلو على كل شىء.

فإذا حزبت الأمور فزع النّاس إلى أبي يوسف.

- **أبو يوسف ينقذ قصر هارون الرشيد:**

«حلف الرشيد يميناً بالطلاق ألاّ تبيتَ زبيدة ليلتها فى بلد يدخل فى ولايته وذلك حين غاضبته فلما سكت عنه الغضب فعل الهوى أفاعيله فى نفسه والتاريخ يذكر مبلغ ما شغفته حباً وشغفها فأظلمت الدنيا فى عينيه والظلام فى عين الرشيد هو العمى فى أعين البلاط فاشتد الخطب وفدح الأمر وكلما مالت الشمس فى الأفق استعداداً للغروب ودنت حمرة الشفق سرت فى أبهاء القصر رعدة الفَرَق. وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ودارت أعين الحاشية كالذى يغشى عليه من الموت وتصايحوا ألا أين نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب. إن فقيه البلاط بين رجال البلاط يا أبا يوسف أفتنا فى أمير المؤمنين وزوجه.

فيقوم أبو يوسف ليخرج من عبقريته ثمرة من ثمار فقه أبي حنيفة فيسوق بعض الخوارق التى تأخذ بالألباب.

صاح أبو يوسف: فَلْتَبِتْ زوج أمير المؤمنين بالمسجد فإنَّه لا ولاية لك يا أمير المؤمنين على المسجد. فالله يقول: «وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا [1]» [2]

---

(١) سورة الجن آية ١٨.

(٢) انظر: المرجع السابق.

- **ثمرة ثانية من ثمار فقه أبى حنيفة يخرجها أبو يوسف :**

لما حج هارون الرشيد وخرج معه أبو يوسف أشار على الرشيد أن يتقدم لإمامة المسلمين، فصلّى الرشيد ركعتين وسلم ونادى أبو يوسف: يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإن أمير المؤمنين مسافر ونحن قوم سفر. فرد عليه رجل من أهل مكة منادياً وكان يصلى معهم يا أبا يوسف نحن أعلم بذلك منك وممن عَلّمك . فأجاب أبو يوسف لو كنتَ أعلم لما تكلمتَ فى صلاتك، وكانت هذه وحدها كافية لتُبْهتَ الرجلَ ولكنه استمر يقول: نحن مهبط الوحى وجبلنا جبل الرحمة ومنزل الحِكم والعلوم والبركات من السماء.

فرد أبو يوسف عليه :

ولكنْ ما استقرت على جبلكم بل سالت إلينا فى الشعاب والأودية فاستقرت عندنا كذلك فعل المطر.

وسيطر صاحب الخليفة على الموقف فى حضرة الرشيد. أفلم يكن الرشيد على حق إذ يقول هاتوا إلىّ مثله[1].

- **ثمرة ثالثة من ثمار فقه أبى حنيفة يخرجها أبو يوسف :**

خوصم إلى أبى يوسف أمير المؤمنين الهادى فى بستان وكان ظاهر الأمر أن البستان له لكن الحق لخصمه، قال الهادى لأبى يوسف ما صنعت فى الأمر الذى نتنازع إليك فيه؟

قال أبو يوسف: خصم أمير المؤمنين يسألنى أن أحلّف أمير المؤمنين أن شهوده على حق، قال الهادى: وترى ذلك؟ قال أبو يوسف: كان ابن أبى ليلى يراه. قال: الخليفة: أرد البستان عليه، لكن أبا يوسف يحتال على أمير المؤمنين

(١) المرجع السابق ص١٣١ ، ١٣٢.

ليردَّ الأميرُ البستانَ إلى خصمه لأن أبا يوسف عنده قناعة بأن البستان لخصم الأمير [1].

- **ثمرة رابعة لفقه أبي حنيفة على لسان أبي يوسف :**

شهد الفضل بن الربيع وزير الخليفة عنده يوماً فرد شهادته أبو يوسف فعاتبه الخليفة قائلاً لِمَ رددتَ شهادته؟

قال أبو يوسف: سمعته يقول لك : أنا عبدك، فإن كان صادقاً فلا شهادة للعبد. وإن كان كاذباً لا تقبل شهادته كذلك.

فمن هذه الأمة قوم يتصدَّون للحكام بحق ويقولون الحق. منـــهم أبـــو يوسف الذى رأى أن يحلف أمير المؤمنين وأن يَرُدَّ شهادةَ وزير فلم يعبأ بحكَّام اعتاد النَّاس أن لا يُوَجِّهُوا لهم خصومات وبيَّن أبو يوسف أن الحكام ليســـوا بمعزل عن توجيه اللوم إليهم أو إظهار أخطائهم.

- **ثراء يلج إلى أبي يوسف من باب الفقه :**

كَتَبَتْ أم جعفر إلى أبي يوسف تقول ما ترى فى كذا وأحبُّ الأشياء إليَّ أن يكون الحق فيه كذا وكذا، فأفتاها أبو يوسف بما صادف هواها، فبعثت إليه بُحُقّ فيه فضة فيه حقاق مطبقات فى كل واحدة منها لون من الطيب وفى جام دراهم وسطها جام فيه دنانير فقال له جلساؤه، قال رســـول الله ﷺ «مَـــنْ أُهْدِيَتْ له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها» قال أبو يوسف: ذاك حين كانـــت هدايا النَّاس التمر واللبن، ولو جاءت الهدايا إلى أبي حنيفة لتحرَّج عن قبولها أو لكافأ المُهْدِى بأضعافها.

---

(٢) انظر: المرجع السابق ص١٣٣.

• وعاء فقه أبي حنيفة يرحل عن الدنيا إلى الآخرة :

فى سنة ثلاث وثمانين بعد المائة مرض أبو يوسف مرض المـوت وسمعه السامع يوم مات وهو يقول: «اللهم إنك تعلم أنى لم أَجُرْ فى حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تَعَمُّداً وقد اجتهدت فى الحكم بما وافق كتابك وسنَّة نبيك ﷺ وكُلَّما أشكَلَ عليَّ جعلت أبا حنيفة بينى وبينك وكان عندى والله ممـن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه».

• وصية أبي يوسف :

عرف النَّاس وصية أبي يوسف تصدَّق : بمائة ألفٌ لأهل مكة، ومائة ألف لأهل المدينة، ومائة ألف لأهل بغداد ومائة ألف للبلد الذى جعل صبى القصار «أبا يوسف» أستاذاً للرشيد ويهب مئات الآلاف وهذا البلد وهو الكوفة.

وكان قبل ذلك قد سأل الرشيد أبا يوسف عـن شـيخه أبي حنيفة فصوَّره فى إحدى جوامع الكلم، قال: قال الله تعالى ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَـوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ كان علمى به أنه شديد الذَّب عن المحارم شديد الورع أن ينطق فى دين الله تعالى بلا علم، يحب أن يطاع الله تعالى، ولا ينافس أهل الدنيا فيما بين أيديهم، طويل الصمت، دائم الفكر، مع علم واسع، لم يكن مهذاراً ولا ثرثاراً، إن سئل عن مسألة كان له علم بها أجاب وإلا قاس مستغنياً عـن النَّاس لا يميل إلى طمع ولا يذكر النَّاس إلاَّ بخير . قال الرشيد: هذه أخـلاق الصالحين [1].

(١) المرجع السابق ص١٩ ، ٢٠.

الإمام أبو حنيفة فى بيته

عاش أبو حنيفة فى أسرته وكانت التجارة تُدرُّ عليه ربحاً كثيراً فكان ثراؤه عريضاً ومع الثراء سخاء يفوق الثراء. واستخدم المال فى الطاعة فجعله من أزودته إلى الدار الآخرة، وصورُ السخاء كثيرة فى حياة الإمام أبى حنيفة منها:

«لما ختم ابنه حماد سورة الفاتحة احتفل به أعظم احتفال فأعطى المعلِّم خمسمائة درهم أو ألف درهم واستكثر المعلِّم هذا السخاء إذ لم يُعَلِّمه من الكتاب إلاَّ فاتحة الكتاب فقال له : لا تستحقر ما علّمت ولدى لو كان معنا أكثر من ذلك لدفعناه إليك تعظيماً للقرآن.

ومنها: أنه حُبِس إبراهيم بن عيينة أخو سفيان بن عيينة الفقيه على أكثر من أربعة آلاف درهم فهَمَّ أصحابه بأن يجمعوا له اكتتاباً فلما صاروا إلى أبى حنيفة أمر برد ما أخذوه من النَّاس وقضى عن المدين دينه.

ومنها: أنه جاءه رجل فقال إن علىَّ لفلان مائة درهم وأنا ذو عسرة فسله يصبر عنى ويؤخرنى بها فكلّم أبو حنيفة صاحب المال فقال صاحب المال: هى له أبرأته منها، قال الذى عليه الدين : لا حاجة لى فيها: قال الإمام أبو حنيفة : ليست الحاجة لك وإنما الحاجة لى قُضيتْ.

ومنها: أنه أصابت رجلاً من الأغنياء فادحةٌ أثقلته وأفقرته فجعل يتجلد حتى عضه الجوع ومسَّه الضر وشكت له امرأته جوعَها وجوع صغيرها أن أجدب الفناء وصفر الإناء أى افتقر وخرج على عزم السؤال وقصد إلى مجلس أبى حنيفة حيث جلس مليّاً تقيمه الحاجة ويقعده الحياء ثم انفض المجلس عن أهله وتفرقوا وخرج الرجل دون أن يبدى من أمره ما أخفى وعاد إلى داره،

وكان أبو حنيفة قد قرأ فى وجهه أشياء تجرى دلائلها بين قسماته فاتبعه حتى دخل الرجل داره. ولما جن الليل جعل أبو حنيفة فى كمه خمسة آلاف درهم ودق الباب وقال: أيها الرجل وضعت عند بابك شيئاً هو لك: ورجع مسرعاً لئلا يرى ذلّ الأخذ فى وجهه . وأخذ الرجل الصُّرَّة وهو يأبى أن يحل عقدها خشية أن تكون صدقة ذمِّى . فلقد كان الذِّميون يتألفون قلوب النَّاس فى تلك الأيام بالأعطيات، ولكن زوجته أهابت به «حُلَّ عقدها لعل الله أن يحل عقدتنا» فلما حلَّها قرأ كلمة أبى حنيفة: هذا المقدار جاء به أبو حنيفة إليك من وجه حلال فليفرغ بالك[1].

- **الهدية عند الإمام أبى حنيفة :**

كان أبو حنيفة يقابل الهدية بمثلها أُهدى إليه منديل قيمته ثلاثة دراهم فعوَّض المُهْدى قطعة خزٍّ قيمتها خمسون درهماً.

وأُهْدى إليه يوماً ألف نعل ففرَّقها على إخوانه ورئى بعد ذلك بيومين يشترى لولده نعلاً فلما سئل فى ذلك قال: إن مذهبى فى الهدايا تقويمها بالغة ما بلغت والمكافأة بمثلها أو مثل ضعفها وتفريق الهدية إخوانى لما قد روى عن النبى ﷺ : أنه قال: «إذا أُهدى إلى الرجل فجلساؤه شركاؤه وإخوانى جلسائى فلا أحب أن أنفرد دونهم بل أرى أن أجعل نصيبى لهم وأرى قبول الهدية كما قال تعالى ﴿خُذ العَفْوَ وَأْمُرْ بالعُرْف﴾ ولما روى عن رسول الله ﷺ أنه كان يقبل الهدية ويجيب الدعوة وأرى المكافأة بأحسن منها لقوله تعالى ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾، ولقوله تعالى ﴿وَلاَ تَنسَوُاْ

(١) أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام ص٢٣ ، ٢٤.

الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ .

و لقد أُهدى إليه مرة فكافأ المُهْدِى بأضعاف ما أهدى إليه فقال له الرجل: لو علمت أنك تفعل ذلك ما أهديت إليك قال أبو حنيفة: لا تقل هذا فإن الفضل للسابق. ألم تسمع إلى ما حدثنى به الهيثم عن أبى صالح يبلغ به النبى ﷺ قال: من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فأثنوا عليه [1].

لقد كان ثراء أبى حنيفة عريضاً وكان كرمه عجيباً وهذا الجود بسبب إدباره عن الدنيا فجرد قلبه عن المادة فأخرج ما له للمعوزين لا يخاف عَيْلةً ولا يستبقى لداره ولا لأهله إلاّ قدر نفقتهم والباقى كله طعام للفقراء والبائسين والسائلين وفى شأن ذلك يقول أبو حنيفة «ما ملكت أكثر من أربعة آلاف درهم منذ أكثر من أربعين سنة إلاّ أخرجته وإنما أمسكها لقول علىٍّ رضي الله عنه : أربعة آلاف فما دونها نفقة: ولولا أنى أخاف أن ألجأ إلى هؤلاء ما تركت منها درهماً واحداً» [2].

ومعنى هذا أن أبا حنيفة كان إذا جمع المال تسابقت كفّاه فى تفريقه على تلميذ يسد حاجته أو على امرأة ذات خصاصة أو على مدين يفك أسره . وخلاصة القول أن أبا حنيفة إذا أنفق على عياله نفقة تصدق بمثلها وإذا اكتسى ثوباً جديداً كسى أحد العلماء والشيوخ مثله.

(١) انظر: المرجع السابق ص٢٥ ، ٢٦.
(٢) المرجع السابق ص٢٥.

• **برُ أبى حنيفة بأمه :**

كان أبو حنيفة بارّاً بأمه يُبجِّلها ويدللها وكانت كبعض الأمهات وبعض العشيرة تكاد تعشى عينها فى سنا نجمها الذى يزيل ظلمات الدنيا بفقهه فنراها لا تطمئن بالفتيا إلاَّ إذا جاءتها من غير الإمام أبى حنيفة «حلفت يميناً واستفتته فأفتاها فلم ترض عما أفتى به أفتاها وأبت إلاَّ أن يفتيها زُرعة القاصّ - الواعظ - فلم يضق ذرعاً وحملها إلى دار زرعة وهناك قال لها أبو زرعة: أأفتيك ومعك فقيه الكوفة ولو انكشف أمامه لوح المستقبل لقال فقيه الدنيا.

وأسرَّ أبو حنيفة لزرعة أفتها بكذا فأفتاها.

ومن برِّه بها :

أنه كان يحملها إلى دار عمر بن ذَرّ على ما كان بين الدارين من بُعد الشقة ثلاثة أميال ليصلّيا التراويح خلفه وليستمعا إلى وعظ هذا الرجل الزاهد وليدعوا الله بهذا الدعاء : أتعذّبنا يا ربِّ وفى جوفنا التوحيد، لا أراك تفعل.

حب متبادل :

لقد أحب الإمام أبو حنيفة أمه حباً جمّاً وأحبَّته والدته حباً فطرياً، فيؤلمه ويفزعه ما يفزعها وتبادله الشعور وأكثر. فحين ابتلى بالضرب على القضاء وأوجعته السياط وهو فى قمة المجد أسَرَّ إلى جاره قائلاً: «والله ما أوجعتنى السياط قدر ما آلمتنى دموع أُمِّى، وقالت له : ما خير فى علم يضيِّعك هذا الضياع، قال : يا أماه إنهم يريدوننى على الدنيا وإننى أريد الآخرة، وإننى أختار عذابهم على عذاب الله»[1].

---

(١) المرجع السابق ص٢٧ ، ٢٨.

الإمام التاجر

رمى أبو حنيفة ببصره فكان بعيد النظر فسعى إلى أن يخلِّص نفسه من السلسلة التى تربط الفكر بلقمة العيش ونجح فى ذلك واطمأن على نفسه ومستقبل أولاده ووقف أمام الأمير فى فتنته ولم ينقطع عيشه ولا عيش أبنائه لأنه ذو مال فهو فى غنى عن الحكام وعن تحكمهم فى لقمة عيش العلماء لقد راح أبو حنيفة يبيع الخَزَّ وهو الحرير الخالص أو المخلوط بالصوف ولقد سبقه إلى هذا نبى الله إدريس فهو أوَّل من خاط الثياب وكان الصِّدِّيق بائعاً للثياب، أدرك أبو حنيفة أنه كلما بَعُد الفقيه عن الحاجة قربت الفتوى من الله وكلَّما أغناه الخالق عن الخلق أدناه إلى الحق وأدرك ذلك الإمام الشافعى فقال: «لا تشاور من ليس فى بيته دقيق فهو مُوَلَّه العقل» [1].

لقد عرف أبو حنيفة ذلك فلم يربط نفسه بالبأساء والضراء بأمراس[2] كتان من الرهبنة المضيِّعة فى حياة يجب أن يعمل فيها المرء لدنياه كأنه يعيش أبداً ليبنى الفرد حضارة أُمَّة إسلامية تنشر دين الله وقوانينه التى تسعد البشرية وتحميها من الهلاك والضياع ويكون شعارها «لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله» .

بدأ أبو حنيفة حياته التجارية بطابعه العلمى فدخل السوق فى حصن فقهى عصمه من الضلال والانحراف فدخله مدخلاً كريماً.

- **حانوت أبى حنيفة :**

اختار الإمام أبو حنيفة فى سوق الكوفة مكاناً من أبرز أمكنة الكوفة

(١) أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام ص٤١.
(٢) المراد بها أربطة.

وهذا يدل على فكر أبى حنيفة التجارى وهذا المكان هو دار عمرو بن حريث الصحابى فهذا المكان معروف لكل المسلمين فهو مكان وقعت فيه معارك عرفها المسلمون منها معركة بين أهل الكوفة والحجاج ومعارك أخرى فهى بحق كانت من أبرز معالم الكوفة ففيها يُستقبلُ الفاتحون وتدور أرحاء المعارك وفيها سوق الحرير.

لقد كان يدير حركة الدكان تلاميذ أبى حنيفة وأوعية فقهه فيدار الدكان بالفقه الحنفى «فتتصور النساء إذا أقبلن أو أدبرن بائعات أو مشتريات يغضضن من أبصارهن ولا يبدين زينتهن يدلفن إلى الدكان كأنما يفدن إلى الدرس ويفصلن عن دار ابن حريث كأنهن يفصلن عن المسجد الجامع وكأنما كنَّ من الدكان فى المحراب.كان صاحب هذا الدكان يقول: من وصف خُفَّ امرأة صغيرة أو كبيرة فقد وصف قدمها ومن وصف قدمها لم يكن عدلاً: ويقول : إذا قامت المرأة من موضعها فلا تجلس فيه حتى يبرد» [1]. ولا غرو فهذا الأستاذ كان إذا مشى فى الطريق لا يعرف الرجل من المرأة. لقد غلبت على الحانوت آداب التجارة بيد أن الحانوت ليس محلاً للمدارسة وإن تولى التلاميذ البيع فيه بين الحين والحين أمَّا العلم فميدانه المسجد لا فى السوق والطريق فى ذلك الحانوت يجلس سيده يتقبل النَّاس بقبول حسن وضَّاء المُحيَّا منبسط الطبع ينصف النَّاس من قبل أن ينصف نفسه من النَّاس لا يتحيَّف ولا يستكبر ولا يستنكف. يقصده فظ القلب فيألفه.

كان قانون الحانوت الصدق فى المعاملة والنُّفرة من المماكسة والظلم،

---

(١) أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام ص٤٤.

العاملون فى الحانوت لا يهتبلون غفلة الزمان أو غفلة الإنسان فلا يكتسبون إلاّ حلالاً ولا يغرِّرون ولا يغرقون أحداً ولقد وقعت أحداث فى الحانوت تنبئ عن صدق المعاملة والبعد عن المماكسة : منها:

١ – «جاءت عجوز إلى دكان أبى حنيفة تطلب ثوباً وتوسلت إليه بسنِّها أن يرفق بها فى الثمن:

قال أبو حنيفة : دونك هذا الثوب يا أماه.

قالت العجوز: بكم؟

قال أبو حنيفة : بأربعة دراهم.

قالت العجوز: لا تسخر منى وأنا عجوز لا حيلة لى.

قال أبو حنيفة: إنه لكذلك، لقد اشتريتُ ثوبين فبعت أحدهما بالثمن كله إلاَّ أربعة دراهم، وهذه الدراهم الباقية هى ما أطلبه منكِ ثمناً للثوب الباقى [1].

٢ – طلب رجل ثوب خَزّ فقال لابنه حمَّاد:

يا حماد، أخرج ثوباً، فأخرج حمَّادٌ ثوباً ونشره قائلاً : صلى الله على محمد، كما يقول التجار: اللهم صلِّ على النبى، قال له أبوه : مَهْ . قد مدحتَه، ورفض الإمام أن يبيع الثوب للرجل، وجال الرجل فى السوق يبحث عن ثوب آخر ولم يوفق فعاد إلى دار ابن حريث أشدَّ ما يكون حاجة إلى الثوب وأظهر ما يكون استعداداً لدفع الثمن ولكن الشيخ فى غير مخاشنة ولا مشاقة بل فى سماح وإسجاح[2] ورفض أن يبيع الثوب.

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١٣ ص٣٦١ بتصريف.

(٢) سهولة ورفق.

و فى حانوت الفقيه الذى تعرفه الجزيرة العربية وأرض الشام بضـاعة لا تعرضها الحوانيت الأخرى فى سوق الخزّازين فكم من رجل جاء من أنحـاء الجزيرة العربية ليشترى لابنته جهازاً فينبِّه النَّاس على الجهاز فى دكان الفقيـه الخزّاز فالثمن العدل فى هذا الدكان، وإذا خدع تلميذ من تلاميذ الشيخ مشترياً فقبض منه ألف درهم وباهى التلميذ بين يدى أستاذه بما صنع ردَّ الأستاذ مـا زاد على الثمن بعد إذ حاول استرداد الثوب ورد الألف بتمامها (١).

٣- بعث الإمام أبو حنيفة بمتاع إلى حفص بن عبد الرحمن شـريكه فى التجارة وأعلمه أن فى ثوب منه عيباً فبيِّنْه للناس فباع حفصٌ المتاع ونسى أن يبيِّن عيبَه كما أخبر شريكُه الإمام. واستوفى الثمن من المشترى كاملاً، لثوب غير كامل، وقيل إن الثمن كان ثلاثين ألفاً أو خمسة وثلاثين ألفاً، فـأبى أبـو حنيفة إلاّ أن يبعث لشريكه يكلِّفه أن يبحث عن المشترى ولكنَّه لم يهتـد إلى الرجل فأبى أبو حنيفة إلاّ فصالاً عن شريكه وتتاركا، بل رفـض أن يضـيف الثمن إلى ماله وتصدَّق به كاملاً (٢).

٤- وجاء رجل بثوب يبيعه قال: بكم ؟ قال: بكذا. قال: إنه يسـتحق أكثر من هذا ولم يزل يزيده حتى اشتراه بثمانية آلاف.

٥- جاءته امرأة بثوب خز يبيعه بمائة فقال لها هو خير من مائـة بكـم تقولين، فزادت مائة مائة حتى قالت : أربعمائة، قال: هو خير من ذلك، قالت: تهزأ بى؟ قال: هاتى رجلاً، فجاءت برجل فاشتراه بخمسمائة درهم.

(١) أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام ص٤٧.
(٢) المرجع السابق ص٤٨ ، ٤٩ بتصريف.

٦- قال عبد الله بن المبارك : قلت لسفيان الثورى : يا أبا عبد الله ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة، قال: ما سمعته يغتاب عدوّاً له، قال: هو أعقل من أن يسلّط على حسناته ما يذهبها.

و لقد قال لأبي حنيفة قائل: يتكلمون فيك ولا تتكلّم فى أحد . قال: هو فضل الله يؤتيه من يشاء [1].

هذا هو السلوك الذى افتقدته الأسواق الإسلامية سلوك أنصف أبو حنيفة المشترى من نفسه وأنصف البائع نفسه ورضى بالثمن العدل حتى لا يلوّث ما له ولم يتخذ المرأة سخرياً ولم يك يريد الإحسان إليها وإنما نفع الله به البائعة والمشترى. نحن أحوج ما نكون إلى السلوك التجارى الذى يبث فى نفوس النّاس الطمأنينة والارتياح فقد صارت أسواقنا تُدَار بالكذب والخداع والغش والبطش وسوء الخلق وتركتْ وزارتا التموين والداخلية التُّجار هم الذين يسعِّرون ويرفعون الأسعار متى يشاءون فجهنم الدنيا الأسواق وكل شهرين أو ثلاثة أشهر تعلن الصحف عن حملة من التموين والداخلية حرروا ألف مخالفة وحُوِّلت إلى المحاكم . ولا نزيد عن هذا حتى لا يُتَّهم القلم بأنه إرهابى نسأل الله العافية من هذه الفتن ورحم الله أبا حنيفة.

- **بلاء أبى حنيفة وعزوفه عن المناصب والمراتب :**

شخصية هذا الرجل لها مفتاح ومفتاحها الخشية من الله تعالى والخوف من المساءلة والعتاب يوم الفصل.

لقد أتت إليه الدنيا تحبو وتتزلّف إليه فى ذلّة تدعوه للقرب من الحكام

(١) أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام ص١١٩.

ويلى القضاء، بيد أن الإمام أبى وأصَرَّ على عدم القبول ولم تَلِـنْ لـه قنـاة فقسروه على القبول فرفض. وضربوه بالسياط مائة سوط وعشـرة أسـواط فازداد إباءً ورفضاً ووردت روايات كثيرة فى هذا البلاء للرجل وهو فى مرحلة لا يتحمَّل سياط الحكام ولا ظلمهم.

– عن عبيد الله بن عمرو أن ابن هبيرة[1] ضرب أبا حنيفة مائة سـوط وعشرة أسواط فى أن يلى القضاء فأبى وكان ابن هبيرة عامل مـروان علـى العراق فى زمن بنى أمية.

– وعن الربيع بن عاصم مولى بنى فزارة قال: أرسلنى يزيد ابن عمر بن هبيرة فَقَدِمْتُ بأبى حنيفة فأراده على بيت المال فأبى فضربه أسواطاً.

- **أثر بلاء أبى حنيفة على أسرته :**

لقد سبق أنه تألم لدموع أمه حين رأت السياط تُلهب جسده، ولقد ورد عن إسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة: قال: مررتُ مع أبى بالكناسة فبكى فقلت له يا أبت ما يبكيك؟ قال: يا بنى فى هذا الموضع ضرب ابن هبيرة أبى عشـرة أيام فى كل يوم عشرة أسواط على أن يلى القضاء فلم يفعل [٢].

- **حوار بين أبى جعفر وأبى حنيفة :**

فعن مغيث بن بديل أنه قال: قال خارجة : دعا أبو جعفر أبا حنيفة إلى القضاء فأبى عليه فحبسه ثم دعا به يوماً فقال: أترغب عما نحن فيـه؟ قـال

---

(١) ابن هُبَيْرِ: بضم الهاء وفتح الباء وسكون ثالثه: هو أبو خالد يزيد بن عمر الفزارى : نائب مروان الحمار كان بطلاً شجاعاً سائساً جواداً فصيحاً خطيباً .. سير أعلام النبلاء جـ ٦ ص٢٠٧ ط مؤسسة الرسالة.

(٢) المرجع السابق ص٣٢٧.

أبو حنيفة: أصلح الله أمير المؤمنين : أنا لا أصلُح للقضاء، فقال أبو جعفـــر: كذبتَ، ثم عرض عليه ثانية . فقال أبو حنيفة : قد حكم عليَّ أمير المؤمنين أنى لا أصلح للقضاء لأنه ينسبنى إلى الكذب. فإن كنت كاذباً فـــلا أصـــلح وإن كنت صادقاً فقد أخبرت أمير المؤمنين أنى لا أصلح، فرده إلى الحبس.

و يبدو من هذه الروايات وغيرها أن هناك أكثر من جهة أجبرت الإمام على القضاء.

- **نجم أفَلَ :**

وردت روايات مختلفة تتحدث عن الأيام الأخيرة فى حيـــاة الإمـــام أبى حنيفة منها أنه حمل إلى بغداد فعاش خمسة عشر يوماً ثم سُقى فمات [١].

و قيل : إنه توفّى فى السجن [٢].

وقيل: مرض ستة أيام ثم مات بعدها [٣].

و مات عن سبعين سنة . ولد سنة ثمانين من الهجرة ومات ســـنة مائـــة وخمسين، ودفن الإمام فى الخيزران، رحم الله الإمام أبا حنيفة.

انتهى الحديث عن الإمام الأعظم

(١) تاريخ بغداد جـ١٣ ص٣٣٠.

(٢) المرجع السابق ص٣٢٨.

(٣) المرجع السابق ص٣٢٩.

الإمام مالك بن أنس

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

إمام دار الهجرة

- **نسبه:**

هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث. ينتهى نسبه إلى عمرو بن الحارث ذى إصبع الحميرى من ملوك اليمن العربى[١].

- **مولده:**

حملت والدة الإمام مالك به على خلاف المعهود من النساء واستمرت مدة حمله ثلاث سنوات وهذا يقع فى البشر. (فعن محمد بن عمر قال سمعت مالكَ بن أنس يقول: قد يكون الحمل ثلاث سنين وقد حمل ببعض النَّاس ثلاث سنين، يعنى نفسه، قال: وسمعت غير واحد يقول: حمل بمالك ثلاث سنين)[٢].

وُلد الإمام مالك فى ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين من الهجرة على الراجح وكان أبو أنس راوية للحديث وكان مقعداً يحترف صناعة النبل [٣].

- **نشأته فى طلب العلم:**

بدأ مالك حياته العلمية صغيراً متأثراً بالبيئة التى نشأ فيها وانصاع لأمر أمِّه حين وجَّهته لطلب العلم (فقد حكى أنه كان يريد أن يتعلم الغناء فوجهته إلى طلب العلم، يقول مالك : حينما بلغت سن التعليم عمَّمتنى وقالت: اذهب فاكتب الحديث ولعلها كانت تريد أن تسترجع فيه علم جده مالك. فقد كان

(١) أئمة الحديث للدكتور الحسينى عبد المجيد هاشم ص٩٠ سلسلة البحوث الإسلامية .
(٢) صفة الصفوة جـ ١ ص٤٣٧.
(٣) أئمة الحديث ص٩٠.

من كبار التابعين . روى عن كثير من الصحابة وكان ثقة . وهو أحد الـــذين كتبوا المصحف الشريف فى عهد عثمان رضي الله عنه . وانطلق يلتمس العلم فأحبه من صغره وحرص على جمعه وتفرغ له ولازم العلماء وحمـــل عنـــهم العلـــم والعمل . ولعل أشدَّهم أثراً فى تكوين عقليته العلمية التى عرف بهـــا هـــو : أبو بكر عبد الله بن يزيد المعروف بابن هرمز المتوفى سنة ثمان وأربعين ومائة من الهجرة . فقد روى عن مالك أنه قال: كنت آتى ابن هرمز من بكـــرة فمـــا أخرج من بيته حتى الليل يقضى معه اليوم كله من الصباح إلى المســـاء ســـبع سنين وكان ابن هرمز يجله ويخصه بما لا يخص به غيره لكثرة ملازمته له.

أمَّا ابن هرمز: فهو العالم الثائر الجرئ الذى خرج مع محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الذكية ضد أبى جعفر المنصور وحمل سلاحه وحارب فلمـــا خمدت الثورة وأوقف أمام الوالى سأله عن سبب خروجه فقال فتنـــة شملـــت النَّاس فشملتنا فيهم فتركه الوالى لمكانه ومكانته عند النَّاس.

و أخذ العلم أيضاً عن الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى وهـــو أول من دوَّن الحديث ومن أشهر شيوخ المدينة وقد روى عنه مالك فى الموطأ مائة واثنين وثلاثين حديثاً. وروى مالك عن نافع مولى ابن عمر . وأخذ عـــن جعفر الصادق الإمام الشيعى من آل البيت وأخرج له فى الموطأ تسعة أحاديث . وروى عن هشام بن عروة ومحمد بن المنكدر ويحيى بن ســـعيد الأنصـــارى وسعيد بن أبى سعيد المقبرى وغيرهم وقد بلغ عدد شيوخه ثلاثمائة من التابعين وستمائة من أتباع التابعين [1].

(١) أئمة الحديث النبوى ص٩١ ، ٩٢ ط سلسلة البحوث الإسلامية.

● **الإمام مالك قوى الحافظة :**

كان الإمام مالك قوى الحافظة سريع البديهة ذا قريحة واعية، وكان جيد التحرى فى رواية الحديث، مدققاً فى ذلك كل التدقيق لا ينقل إلاّ عن ثبت ثقة ولا يغتر بمظهر الراوى أو هيئته.

قال الإمام مالك: لقد أدركت فى هذا المسجد مسجد رسول الله ﷺ، سبعين ممن يقول : قال فلان : قال رسول الله ﷺ فما أخذت عنهم شيئاً وأن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان أميناً عليه إلاّ أنهم لم يكونوا من هذا الشأن أى أهل الحديث.

و قال: قدم علينا ابن شهاب فكنا نزدحم على بابه:

و قال عن نفسه : ربما وردت علىَّ المسألة فأسهر فيها عامة ليلتى. لقد بهر مالك أساتذته كما بهر أقرانه بمواهبه الفطرية وجهاده الدائب وشغفه الشديد بالعلم [1].

لم يرحل الإمام فى طلب الحديث كعادة طلاب العلم فى ذلك الوقت فهى أى الرحلة من السمات المميزة لأهل الحديث . ولعل الإمام مالكاً كان يعتقد أن العلم علم أهل المدينة لأن ينبوع الحديث كان يتفجر من رياض المدينة المنورة قال الليث بن سعد: وأن النّاس تبع لأهل المدينة التى إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن.

و رغم أن مالكاً لم يرحل ولم يظعن إلاّ أنه لم يخسر شيئاً فلقد كانت المدينة ملاذ العلماء ولم يَخْلُ محدِّث ممن رحلوا من المرور بها لزيارة الرسول ﷺ

---

(١) المرجع السابق ص٩٣.

وليلتمس العلم من مصدره فالتقى مالك بأكثرهم واستفاد، فأهل العلم أتـــوا إلى المدينة فأفادوه فاستفاد أكثر من الرحلة.

- **رُؤى النبى ﷺ شهادات لمالك :**

لقد رأى بعض النَّاس رؤيا لمالك ، ورأى مالك لنفسه كثيراً من الرؤى كلها شهادات ونفحات لمالك.

أولاً: «عن محمد بن عاصم ثنا[1] عبد العزيز بن أبان ثنا المثنى بن سعيد القصير قال: سمعت مالك بن أنس يقول: ما بت ليلة إلا رأيت رسول الله ﷺ »

ثانياً: «عن إسماعيل بن مزاحم المروزى وكان من أصحاب بن المبارك مـــن العباد: قال: رأيت النبى ﷺ فى المنام فقلت: يا رسول الله من نســـأل بعدك؟ قال: مالك بن أنس».

ثالثاً: « حدثنا عبد الله بن محمد بن عبيد حدثنى محمد بـــن الحســـين حـــدثنى مطرف أبو صعب حدثنى عبد الله مولى الليثين وكان مختاراً، قال: رأيـــت رسول الله ﷺ فى المسجد قاعداً والنَّاس حوله ومالك قائم بين يديه وبين يدى رسول الله ﷺ مسكٌ وهو يأخذ منه قبضـــة فيـــدفعها إلى مالـــك ومالك ينشر على النَّاس قال مطرف: فأوَّلـــت ذلـــك العلـــم واتبـــاع السنة».

رابعاً: « عن محمد بن رمح التجيبى قال: رأيت النبى ﷺ فيما يرى النـــائم فقلت: يا رسول الله قد اختلف علينا فى مالك والليث فأيهما أعلـــم؟ قال: مالك ورث حدِّى معناه علمى»[2].

---

(١) ثنا: هذه تتكرر ، ومعناها: حدثنا. فهى مختصرة فى السند.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهانى جـ ٦ ص٣١٧.

• **إجازة العلماء للإمام مالك للفُتيا :**

حين استوى الإمام مالك فى ميدان العلم ولم يتجاوز حده ولم يذهب إلى مقام الإفتاء ولم تتطلع إليه نفسه كما يفعل الذين قرأوا قشور العلم ولم يَطْعَموا لبه ويخطئون فى فتواهم لم يفعل ذلك الإمام مالك وأحجم عن الإفتاء حتى سأل أكابر العلماء هل هو أهل للإفتاء أم لا؟ فعن الحسن بن عبد العزيز الجروى ثنا عبد الله بن يوسف عن خلف بن عمرو قال: سمعت مالك بن أنس يقول: ما أجبت فى الفتيا حتى سألتُ من هو أعلم منى. هل يرانى موضعاً لذلك؟ سألت ربيعة وسألت يحيى بن سعيد فأمرانى بذلك. فقلت له: يا أبا عبد الله فلو نهوك؟ قال: كنت أنتهى. لا ينبغى لرجل أن يرى نفسه أهلاً لشىء حتى يسأل من هو أعلم منه. قال خلف : دخلت على مالك فقال لى: انظر ما ترى تحت مُصلاَّى أو حصيرى؟ فنظرت فإذا أنا بكتاب فقال: اقرأه فإذا فيه رؤيا رآها له بعض إخوانه فقال: رأيت النبى ﷺ فى المنام فى مسجده قد اجتمع الناس عليه. فقال لهم : إنى قد خبَّأت لكم تحت منبرى طيباً أو علماً. وأمرت مالكاً أن يفرقه على النَّاس. فانصرف النَّاس وهم يقولون إذاً ينفذ مالك ما أمره به رسول الله ﷺ .ثم بكى فقمت عنه».

• **شهادة سبعين عالماً لمالك بالإفتاء :**

عن محمد بن على بن عاصم قال: سمعت المفضَّل بن محمد الجندى يقول: سمعت أبا مصعب يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: ما أفتيتُ حتى شهد لى سبعون أنى أهل لذلك»[1].

(١) المرجع السابق ص٣١٦ ، ٣١٧.

- **الإمام مالك يصف العلم ويصف العلماء :**

ورد عن خالد بن خداش قال: « ودعتُ مالكَ بن أنس فقلت: أوصني يا أبا عبد الله. قال: تقوى الله وطلب الحديث من أهله ».

«وعن يونس بن عبد الأعلى ثنا ابن وهب، قال: قال مالك: العلم نور يجعله الله حيث يشاء ليس بكثرة الرواية».

«وعن مالك قال: بلغني أن العلماء يُسأَلون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء».

«و قيل لمالك بن أنس : ما تقول فى طلب العلم؟ قال: حسن جميل ولكن انظر الذى يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى فالزمه» [1].

- **تهيُؤ الإمام مالك لإلقاء الحديث :**

كان الإمام مالك يحترم الحديث ويعظِّمه فإذا أراد أن يحدِّث بحديث رسول الله ﷺ تهيَّأ فتوضأ وسرَّح لحيته وجلس متمكناً فى جلوسه على صدر فراشه فى وقار وهيبة وكأنه فى مجلس رسول الله ﷺ.

«حدثنا ابن أبى أويس قال: كان مالك إذا أراد أن يحدِّث توضأ وجلس على فراشه وسرَّح لحيته. وتمكن فى الجلوس بوقار وهيبة ثم حدَّث. فقيل له فى ذلك فقال: أُحب أن أعظِّم حديث رسول الله ﷺ . ولا أحدث به إلاَّ على طهارة متمكناً وكان يكره أن يحدث فى الطريق وهو قائم أو يستعجل فقال: أحب أن أتفهم ما أحدث به عن رسول الله ﷺ ».

(١) المرجع السابق ص٣١٩.

«وعن المفضَّل بن محمد الجندى يقول: سمعت أبا مصعب يقول: كـــان مالكٌ لا يحدِّث بحديث رسول الله ﷺ إلاَّ وهو على الطهارة إجلالاً لحـــديث رسول الله ﷺ»[1].

و من إجلاله لحديث رسول الله ﷺ: أنه تعرض لحشرة لدغته وهـــو يتحدث بحديث رسول الله ﷺ فصبر ولم يرفع صوته بالاستغاثة فعـــن ابـــن المبارك (كنت عند مالك وهو يحدثنا حديث رسول الله ﷺ فلدغته حشـــرة كالعقرب ست عشرة مرة ومالك يتغيَّر لونه ويتصبَّر ولا يقطع الحديث فلمـــا فرغ من المجلس وتفرق النَّاس قلت له: لقد رأيت منك عجباً، فقال: نعم، إنما صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ»[2].

- **التحرى والدقة فى فتوى الإمام مالك :-**

كان يتحرى الدقة فى فتاويه وكان يخاف من الله أن يخطئ أو أن يقـــول برأيه، فعن «عبد الرحمن بن مهدى قال: رأيت رجلاً جاء إلى مالك بن أنـــس يساله عن شيء أياماً ما يجيبه فقال: يا أبا عبد الله إنى أريد الخـــروج. قـــال: فأطرق طويلاً ثم رفع رأسه وقال: ما شاء الله يا هذا، إنى إنمـــا أتكلـــم فيمـــا أحتسب فيه من الخير وليس أحسن مسألتك».

و عن عبد الرحمن بن مهدى قال: سأل رجل مالكاً عن مسألة فقال إنى لا أحسنها فقال الرجل : إنى ضربت إليك من كذا وكذا لأسألك عنها. فقال له مالك: فإذا رجعتَ إلى مكانك وموضعك فأخبرهم أنى قد قلتُ لـــك : إنى لا أحسنها».

---

(١) المرجع السابق ص٣١٨. (٢) أئمة الحديث ص٩٤.

«وقال صديق لمالك بن أنس، قال: قلت لمالك يا أبا عبد الله يأتيك ناس من بلدان شتى قد أنضوا مطاياهم وأنفقوا نفقاتهم يسألونك عما جعل الله عندك من العلم تقول: لا أدرى، فقال: يا عبد الله يأتينى الشامى من شامه والعراقى من عراقه والمصرى من مصره فيسألوننى عن الشيء لعلى أن يبدو لى فيه غير ما أجيب به فأين أجدهم؟ »[1].

- **الإمام مالك صمام أمان للمسلمين:**

كان الإمام يدافع عن الدين دفاعاً يريد به وجه الله فأثمر ذلك فى النَّاس ومن كلام الإمام مالك حين «سئل عن الداء العضال فقال: الخبث فى الدين».

«وعن محمد بن إسحاق قال: سمعت قتيبة بن سعيد يقول: قدمت المدينة ومالك حيّ فتقدمت إلى فامى فقلت : عندكم خَلٌّ خمر؟ فقال: سبحان الله، فى حرم رسول الله ﷺ، قال: ثم قدمتُ المدينة بعد موت مالك، فذكرت لهم فلم ينكروا»[2].

ولقد هبَّت موجة من موجات القدرية والمشبهة على المدينة وتعامل معهم الإمام مالك بحجة دحضت فكرهم، وبددت مذهبهم ووعاها العلماء فى كل عصر، فعن (جعفر بن عبد الله قال: كنا عند مالك بن أنس فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [3]؟ فما وجد مالكٌ من شيء ما وجد من مسألته فنظر إلى الأرض وجعل ينكت بعود فى يده حتى علاه الرُّحَضَاء – يعنى العرق– ثم رفع رأسه ورمى بالعود وقال: الكيف منه غير

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء جـ ٦ ص٣٢٣ ، ٣٢٤. ط دار الكتب العلمية – لبنان.

(٢) المرجع السابق ص٣١٩.

(٣) سورة طه آية ٥.

معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وأظنك صاحب بدعة وأمر به فأخرج»[1].

ومعناه: الاستواء معلوم من حيث اللغة، وفى حق الله مجهول. فإن الله يعلمه، أو أن لله صفة هى صفة الاستواء قائمة بذاته.

«وعن ابن وهب قال: سمعت مالكاً يقول لرجل : سألتنى أمس عن القدر؟ قال: نعم، قال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [2]، فلابد من أن يكون ما قال الله »[3].

« وعن الحسن بن عبد العزيز قال: سمعت أبا حفص يقول: سمعت مالك ابن أنس يقول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [4]، قوم يقولون ناظرين إلى ثوابه، قال مالك: كذبوا، فأين هم عن قول الله تعالى ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [5].

و عن عثمان بن صالح : جاء رجل إلى مالك وسأله عن مسألة قال: فقال له : قال رسول الله ﷺ كذا، فقال الرجل: أرأيت؟ قال مالك: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

- **صفة الإمام مالك :**

كان الإمام مالك كريماً سمحاً غيوراً فى الله، وكان مهيباً حازماً فى الدفاع

---

(١) المرجع السابق ص٣٢٥ ، ٣٢٦.
(٢) سورة السجدة آية ١٣.
(٣) المرجع السابق ص٣٢٦.
(٤) سورة القيامة آية ٢٢ ، ٢٣.
(٥) سورة المطففين آية ١٥.

عن الحق يكره الجدل واللغط ورفع الصوت خاصة فى مجلس الحديث. وكان متواضعاً: ومع تواضعه كان لا يهاب السلاطين ويرسم للعامة طريق المصارحة بالحق معهم ومظاهر ذلك:

«ناظره أبو جعفر المنصور فى مسجد رسول الله ﷺ فرفع صوته: فقال له مالك: يا أمير المؤمنين : لا ترفع صوتك فى هذا المسجد فإن الله ﷻ أدب قوماً فقال: ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، ومدح أقواماً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ (١).

و أيضاً: «لما قدم الخليفة المهدى المدينة، أقبل النَّاس عليه مسلِّمين فلما أخذوا مجالسهم جاء مالك فقالوا: اليوم يجلس مالكٌ آخر النَّاس، فلما دنا ونظر ازدحام النَّاس وقف، وقال: يا أمير أين يجلس شيخك مالك؟ فناداه المهدى: عندى يا أبا عبد الله . فتخطى النَّاس حتى وصل إليه فرفع المهدى ركبته اليمنى وأجلسه بجانبه»(٢).

وهذا التصرف يصدر عن فهم واسع وعن شخصية لها فكرها العميق تحترم العلم فدفعه احترامه للعلم إلى احترام نفسه فى موطن يُدفَع النَّاس فى مجلس الأمير.

وتحدث الإمام مالك عن وقار العلم فعن «ابن وهب قال: سمعت مالك بن أنس يقول: قال عيسى بن مريم عليهما السلام: تأتى أمة محمد ﷺ علماء حكماء كأنهم من الفقه أنبياء. قال مالك: أراهم صدر هذه الأمة، قال مالك:

---

(١) أئمة الحديث النبوى ص٩٦.
(٢) المرجع السابق.

وحقٌّ على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، والعلم حسن لمن رزق خيره، وهو قسْم من الله فلا تمكِّن النَّاس من نفسك فإن من سعادة المرء أن يوفَّق للخير وإن من شقوة المرء أن لا يزال يخطئ، وذُلٌّ وإهانة للعلم أن يتكلَّم الرجل بالعلم عند من لا يطيعه»[1].

- **بلاء مالك بن أنس كبلاء أبى حنيفة :**

يبدو أن علماء هذه الأمة نالوا من أبنائها الذّل والإهانة فليست هناك على وجه البسيطة أمة متحضِّرة تفعل بأقمارها كما فعلت هذه الأمة بأقمارها وليس أمر أبى حنيفة ببعيد، ولقد أصاب مالكاً الهوان. وشرب من الكأس الذى شرب منه أبو حنيفة فضُرِبَ مالك وحلقوا رأسه وحملوه على بعير وطافوا به «حدثنا أحمد بن إسحاق. ثنا أبو بكر بن محمد بن أحمد بن راشد، قال: سمعت أبا داود يقول: ضَرَبَ جعفر بن سليمان مالك بن أنس فى طلاق المُكْرَه، وحكى لى بعض أصحاب ابن وهب عن ابن وهب أن مالكاً لما ضُرب حَلَق وحُملَ على بعير فقيل له: نادِ على نفسك، قال: فقال: ألا من عرفنى فقد عرفنى ومَنْ لم يعرفنى فأنا مالك بن أنس بن أبى عامر الأصبحى . وأنا أقول: طلاق المكرَه ليس بشىء. قال: فبلغ جعفر بن سليمان أنه ينادى على نفسه بذلك فقال: أدركوه أنزلوه» [2].

---

(١) حلية الأولياء جـ ٦ ص٣٢٠.

(٢) المرجع السابق ص٣١٦.

- **أقوال العلماء في الإمام مالك :**

الإمام الشافعي :

«عن محمد بن الربيع بن سليمان، سمعت الشافعي يقول: لـــولا مالـــك وسفيان لذهب علم الحجاز».

« وعن محمد بن الربيع بن سليمان : سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول: إذا جاء الحديث عن مالك فاشدد يديك به».

«و عن محمد بن الربيع سمعت الشافعي يقول: كان مالك إذا شـــك في الحديث طرحه كله»[1].

سفيان بن عيينة :

«عن ابن وهب عن سفيان بن عيينة قال: كان مالك لا يأخذ الحـــديث إلاّ من جيده»

« وعن حاتم بن الليث الجوهري ثنا علي بن عبد الله ثنا سفيان : قال: كان مالك ينتقي الرجال ولا يحدث عن كل أحد، قال: علي : ومالك أمـــان فيمن حدث عنه من الرجال، كان مالك يقول: لا يؤخذ العلم إلاّ عـــن مـــن يعرف ما يقول».

« وعن الحسن بن عمر بن يزيد قال: سمعت القعنبي يقول: أتينا سفيان بن عيينة فرأيته حزيناً فقيل: بلغه موت مالك بن أنس – رحمه الله– . ثم قال: سفيان: ما ترك على الأرض مثله»[2].

---

(١) المرجع السابق ص٣٢٢.

(٢) المرجع السابق ص٣٢١ .

حمّاد بن زيد :

« عن الفضل بن سهل يقول: سمعت القواريرى يقول: كنا عند حماد بن زيد وجاءه نعى مالك بن أنس فقال: رحم الله أبا عبد الله كان من الدين بمكان»[1].

عبد الرحمن بن القاسم:

«عن الحارث بن مسكين قال: كان عبد الرحمن بن القاسم يقول: إنما أقتدى فى دينى برجلين : مالك بن أنس فى علمه، وسليمان بن القاسم فى ورَعه»[2].

« عن محمد بن إدريس الشافعى : قال: قالت لى عمتى ونحن بمكة رأيت الليلة عجباً فقلت لها وماهو؟ قالت: رأيت كأن قائلاً يقول: مات الليلة أعلم أهل الأرض. قال الشافعى فحسبنا ذلك فإذا هو يوم مات مالك بن أنس»[3].

عبد الله بن المبارك:

« عن نعيم بن حماد قال: سمعت ابن المبارك يقول: ما رأيت رجلاً ارتفع مثل مالك بن أنس : ليس له كثير صلاة ولا صيام إلاّ أن تكون له سريرة»[4].

---

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق ص٣٣٠.
(٤) المرجع السابق.

ترك الإمام مالك علماً وأحاديث جمعها، ومذهباً فقهياً . وأودع هـــذا العلم فى عقول تلاميذه، لقد روى عنه تلميذه الإمام الشافعى ومحمـــد بـــن الحسن وعبد الله بن المبارك ويحيى بن سعيد القطان، وكثيرون من شيوخ الإمام البخارى والإمام مسلم، وأئمة الحديث والزهرى ويحيى بن سعيد الأنصارى.

والكتاب الذى جمع فيه الأحاديث هو الموطأ « قال القاضى أبو بكر ابن العربى فى شرح الترمذى : الموطأ هو الأصل واللباب وكتاب البخـــارى هـــو الأصل الثانى فى هذا الباب، وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمـــذى وعـــدد أحاديث الموطأ كما قال أبو بكر الأبهرى: جملة ما فى الموطأ من الآثـــار عـــن النبى ﷺ وعن الصحابة والتابعين ألفٌ وسبعمائة وعشرون حديثاً المسند منها ستمائة حديث والمرسل مائتان واثنان وعشرون حـــديثاً والموقـــوف ســـتمائة وثلاثة عشر ومن قول التابعين مائتان وخمسة وثمانون . وقد ورد غير ذلك فى عدده »(1).

- **مدة جمع الموطأ :-**

جمع الإمام مالك أحاديث الموطأ فى ستين سنة ذاق خلال تحصيله لهـــذا الكتاب مرارة الفقر ونار البؤس «فعن يونس بن عبد الأعلى ثنا ابن وهب عن مالك. قال: لا يبلغ أحد ما يريد من هذا العلم حتى يضربه الفقر ويؤثره على كل حاجة» (2).

---

(1) أئمة الحديث ص٩٧ ، ٩٨.
(2) حلية الأولياء جـ ٦ ص٣٣١.

وهذا يدل على أن الإمام مالكاً كان يعيش فى شظف من العيش وقلّة ذات اليد ومع هذا جادت قريحته بالموطأ واستغرق العمل فيه نحو ستين سنة «فعن العباس بن الوليد البيروتى ثنا أبو خُلَيد قال: أقمت على مالك فقرأت الموطأ فى أربعة أيام فقال: مالك: علم جمعه شيخ فى ستين سنة أخذتموه فى أربعة أيام؟ لا فقهتم أبداً»[1].

- **الإمام مالك يرفض التعصب للموطأ:**

علّم الإمام مالك هذه الأمة أمراً وهو عدم التعصب، فالهوى فى الدين الإسلامى مرفوض، والتعصب لمذهب دون آخر مردود، وكانت هناك فرصة للإمام مالك أن ينتشر كتاب الموطأ فى البلاد الإسلامية، ولا يكون إلاّ هذا الكتاب وتتوارى المذاهب الأخرى ويسود فكر مالك ومذهبه ولكنه أبى وهذا الإباء كان درساً لأمة الإسلام فى تخليها عن التعصب والمصادرة على المذاهب الأخرى وظهر هذا فى موقفين :

الأول: «عن عبد الله بن عبد الحكم قال: سمعت مالك بن أنس يقول: شاورنى هارون الرشيد فى ثلاث: فى أن يعلق الموطأ فى الكعبة. ويحمل النّاس على ما فيه، وفى أن ينقض منبر النبى ﷺ ويجعله من جوهر وذهب وفضة وفى أن يقدم نافع بن أبى نعيم إماما يصلى فى مسجد رسول الله ﷺ فقلت: يا أمير المؤمنين : أمَّا تعليق الموطأ فى الكعبة فإن أصحاب رسول الله ﷺ : اختلفوا فى الفروع وتفرقوا فى الآفاق، وكلٌ عند نفسه مصيب، وأمَّا نقض منبر رسول الله ﷺ واتخاذك إياه من جوهر

(١) المرجع السابق.

وذهب وفضة فلا أرى أن تُحرِمَ النَّاس أثر النبى ﷺ، وأمَّا تقــدمتك نافعاً إماماً يصلى بالناس فى مسجد رسول الله ﷺ فإن نافعاً إمــام فى القراءة لا يُؤْمنُ أن تندر منه نادرة فى المحراب فتُحفَظَ عليــه قــال: هارون الرشيد: وفقك الله يا أبا عبد الله»[1].

الثانى: «عن أبى زرعة الدمشقى قال: سمعت أبا مسهر يقول: ســأل المــأمون مالك بن أنس هل لك دار؟ فقال: لا . فأعطاه ثلاثــة آلاف دينــار وقال: اشتر لك بها داراً، قال: ثم أراد المأمون الشــخوص، وقــال: لمالك: تعال معنا، فإنى عزمت أن أحمل النَّاس على الموطأ كمــا حمــل عثمان النَّاس على القرآن فقال له مالك : مالَكَ إلى ذلك سبيل وذلك أن أصحاب النبى ﷺ افترقوا بعده فى الأمصار فحدثوا فعند كل أهل مصر علم، ولا سبيل إلى الخروج معك فإن النبى ﷺ قال: والمدينــة خير لهم لو كانوا يعلمون : وقال المدينة تنفى خبثها كما ينفى الكــير خبث الحديد: وهذه دنــانيركم فــإن شــئتم فخــذوه وإن شــئتم فدعوه»[2] هذه منزلة الإمام مالك فى الإسلام وساقه للأمة الإسلامية فهل يعــى هذا الذين قرأوا من العلم بعض سطوره، ولاكوا بعض قشوره، وتعســروا فى هضم لُبِّه وانفردوا بقولٍ واحدٍ أو مذهب واحد وَعَمُوا عــن آراء غيرهــم الصحيحة والمذاهب الأخرى، وطفقوا يُشَوِّشُون على المذاهب الأخرى، وقد يرمون غيرهم بالكفر، وبعض هؤلاء صاروا يشككون العوام وتحيِّر العــوام. وآخر بدع هؤلاء المتنطعين أن علماء الأزهر كفرة لأنهم معتزلة وأشاعرة هل

---

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق.

العوام يعرفون المعتزلة والأشاعرة حتى يقال لهم ذلك؟

يا أمة الإسلام: علماءُ الأزهر أصِمَّةُ [١] أمان لهذه الأمة، فاحذروا الانزلاق وراء هؤلاء المتنطعين، ويوم القيامة سنرى من هو على الصراط المستقيم، ومن الذى تفرق إلى السبل الأخرى.

- **وفاة الإمام مالك :**

بعد الحياة العريضة الحافلة بالعلم والأحداث والتى عاشها الإمام مالك ولكل مخلوق نهاية فلقد غرب نجم من أنجم هذه الأمة وأفل ورحل عنها، فتوفى – رحمه الله– فى ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة عن خمس وثمانين سنة قضاها فى خدمة العلم والدين وأعطى للأمة صورة مشرفة للعالم العامل، وصلّى عليه أمير المدينة عبد الله بن محمد بن إبراهيم العباسى وشيَّع جنازته وشارك فى حمل نعشه ودفن بالبقيع رضي الله عنه وأرضاه.

(١) الأصمَّة : جمع صمام



الإمام

محمد بن إدريس الشافعى

رضى الله عنه

قال عنه الإمام أحمد بن حنبل:

«كان الشافعى كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فهل لهذين من خلف أو عوض؟»

لا أجد عبارات أبداً بها ولا كلمات بليغة فصيحة ولا ألفاظاً جزلة أقدِّم بها هذا الإمام، كهذه العبارات والكلمات والألفاظ التى قدَّم له بها الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهانى صاحب كتاب «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء».

قال أبو نعيم – رحمه الله– : «ومنهم الإمام الكامل العالم العامل، ذو الشرف المنيف، والخُلق الظريف، له السخاء والكرم، وهو الضياء فى الظُّلَم، أوضَحَ المشكلات، وأفصَحَ عن المعضلات، المنتشرُ علمه شرقاً وغرباً، المستفيض مذهبه براً وبحراً، المتَّبِع للسنن والآثار، والمقتدى بما اجتمع عليه المهاجرون والأنصار، اقتبس عن الأئمة الأخيار، فحدث عنه الأئمة الأحبار، الحجازى المطلبى، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنه وأرضاه، حاز المرتبة العالية، وفاز بالمنقبة السامية، إذ المناقب والمراتب يستحقِّها من له الدين والحسب، وقد ظفر الشافعى –رحمه الله تعالى– بهما جميعاً شرف العلم والعمل به، وشرف الحسب وهو قربه من رسول الله ﷺ، فشرفه فى العلم ما خصه الله تعالى به من تصرفه فى وجوه العلم، وتبسطه فى فنون الحكم، فاستنبط خفيات المعانى، وشرح بفهمه الأصول والمبانى، ونال ذلك بما يخص الله تعالى به قريشاً من نُبْل الرأى»[1].

(١) حلية الأولياء جـ ٩ ص٦٣ ، ٦٤.

- **نسب الإمام الشافعى :**

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف [1]، فيشترك فى النسب مع رسول الله ﷺ .

- **تاريخ ميلاده :**

قال الشافعى عن نفسه ولدت بغزة سنة خمسين ومائة وحملت إلى مكة وأنا ابن سنتين [2].

ومن قول الشافعى هذا ندرك أنه ولد بغزة بأرض فلسطين المحتلة نسأل الله أن يفك أسر المسجد الأقصى وفلسطين وبلاد الرافدين، وقيل: إنه ولد بعسقلان.

- **نشـأته :**

حمل الشافعى كما سبق إلى مكة وهو ابن سنتين ونشأ يتيماً فقيراً فعن ورَّاق الحميدى عن الشافعى قال: كنت يتيماً فى حجر أُمِّى ولم يكن معها ما تعطى المعلِّم وكان قد رضى منى أخلفه إذا قام فلما ختمت القرآن دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء فأحفظ الحديث أو المسألة وكان منزلنا بمكة فى شعب الخَيْف فكنت أنظر إلى العظم يلوح فأكتب فيه الحديث والمسألة وكانت لنا جرة قديمة فإذا امتلأ العظم طرحته فى الجرة [3]. وقال الشافعى عن شظف

(١) المرجع السابق ص٦٧.
(٢) صفة الصفوة للإمام ابن الجوزى جـ ١ ص٤٨٢.
(٣) حلية الأولياء جـ ٩ ص٧٣.

عيشه فى تلك الفترة، فجئت إلى مصعب بن عبد الله فكلمته أن يكلِّم بعض أهلنا فيعطينى شيئاً من الدنيا فإنَّه كان بى من الفقر والفاقة ما الله به عليم فقال لى مصعب: أتيت فلاناً فكلمتُه فقال لى: تكلمنى فى رجل كان منَّا قال: فأعطانى مائة دينار[1] وبعد زواجه وإنجابه بنتاً كان يعيش فى شظف من العيش، قال الشافعي: أفلست من دهرى ثلاث إفلاسات فكنت أبيع قليلى وكثيرى وحُليّ ابنتى وزوجتى ولم أرهن قط، وقال لم يكن لى مالٌ وكنت أطلب العلم فى الحداثة فكنت أذهب إلى الديوان أستوهب الظهور أكتب عليها [2].

● **تطلبه للعلم :-**

حفظ الشافعي القرآن وهو ابن سبع سنين والموطأ وهو ابن عشر سنين وتفقه على مسلم بن خالد الزنجى مفتى مكة، وأذن له فى الإفتاء وعمره خمس عشرة سنة ثم لازم مالكاً [3].

بدأ الشافعي حياته بأنْ سلك أودية الشعراء فطفق يحفظ الشِّعر فكان يتجه إلى البوادى يسمع الشعر ويسجله إلى أن تغيَّر طريقه إلى طريق.الفقه عن حسين الكرابيسى يقول: سمعت الشافعي يقول: كنت امرءًا أكتب الشعر فآتى البوادى فأسمع منهم، قال: فقدمت مكة فخرجتُ منها وأنا أتمثل بشعر للبيد وأضرب وحشى قدمى بالسوط فضربنى رجل من ورائى من الحجبة فقال: رجل من قريش ثم ابن المطلب رضى من دينه ودنياه أن يكون معلِّماً، ما الشعر؟ هل الشعر إذا استحكمت فيه إلاَّ قصدت معلماً، تفقه يُعَلِّمْك الله.

---

(١) المرجع السابق ص٧١.

(٢) المرجع السابق ص٧٧.

(٣) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لعبد الحى بن العماد الحنبلى جـ ٢ ص٩ .

قال الشافعى فنفعنى الله بكلام ذلك الحجبى [1].

ولّى الشافعى بعد هذا وجهه إلى الفقه واتجه إلى سفيان بن عيينة فكتب عنه فى الحديث ما شاء ثم تتلمذ على يد مسلم بن خالد الزنجى ثم قرأ على مالك بن أنس يقول الشافعى : فنفعنى الله بكلام الحجبى ورجعت إلى مكة وكتبت من ابن عيينة ما شاء الله أن أكتب ثم كنتُ أجالس مسلم بن خالد الزنجى ثم قرأت على مالك بن أنس فكتبت موطأه فقلت له يا أبا عبد الله أقرأ عليك؟ قال: يا ابن أخى، تأتى برجل يقرأه علىَّ فتسمع، فقلت أقرأ عليك فتسمع إلى كلامى: فقال لى: اقرأ، فلما سمع قراءتى، أذنَ فقرأت عليه حتى بلغت كتاب السير فقال لى: اطوه يا ابن أخى: تفقَّهْ تعلُ.

- **رحلات الإمام الشافعى :**

رحل الشافعى إلى اليمن مع عمٍّ له وكان هذا العم قد ولى القضاء وعاد الشافعى من اليمن ولم يذكر شيء عن نهله العلم من اليمن.

يقول الشافعى : فلما قدمت من اليمن أتيتُ مسلم بن خالد الزنجى فسلَّمتُ عليه فلم يرد علىَّ السلام وقال: أحدهم يجيئنا حتى إذا ظننا أنه يصلح أفسد نفسه، قال: فسرت إلى سفيان بن عيينة فسلَّمت عليه فرد علىَّ السلام، وقال: قد بلغنى يا أبا عبد الله ما كنت فيه، وما بلغنى إلاَّ خير فلا تعد. يقول الشافعى: ثم خرجت إلى المدينة فقرأتُ الموطأ على مالك ثم خرجت إلى العراق[2].

---

(١) حلية الأولياء جـ ٩ ص٧٠.

(٢) حلية الأولياء جـ ٩ ص٧٥.

تهيأ الفتى لأن يقوم مقام المفُتى فلقد أذن له مسلم بن خالد الزنجى بعد أن استوى على ساقه وهو صغير وتفقه على يديه فأذن له بالإفتاء وعمر الشافعى خمس عشرة سنة.

- **احتكاك فكرى فى العراق :-**

خرج الشافعى إلى العراق بعد أن استوى ووقع احتكاك فكرى فقهى بين الشافعى وتلاميذ أبى حنيفة فى العراق لقد ناظر الشافعى أصحاب محمد بن الحسن، فشكاه الأصحاب إلى شيخهم محمد بن الحسن ذلك فقلت له: إنا كنا لا نعرف إلاّ التقليد فلما قدمنا عليكم سمعناكم تقولون لا تقلّدوا واطلبوا الحق والحجاج فقال لى: فَنَاظِرْنى فقلت له: أناظر بعض أصحابك وأنت تسمع فقال: لا، إلاّ أنا، قال: فقلت : ذلك.

قال: فتسأل أو أسأل؟ قلت: ما شئت.

بدء المناظرة :

قال محمد بن الحسن : فما تقول فى رجل غصب من رجل عموداً فبنى عليه قصراً فجاءه مستحقٌ فاستحقه؟

قال الشافعى : قلت يخَيَّر بين العمود وقيمته. فإن اختار العمود هُدِم وأخرج العمود، فرده على صاحبه.

قال محمد بن الحسن :فما تقول فى رجل : غصب من رجل خشبة فبنى عليها سفينة ثم لجج بها فى البحر ثم جاء صاحبها فاستحقها؟

قال الشافعى: قلت تقدم إلى أقرب المرسيين فيخير بين القيمة وبين الخشبة فإن أخذ قيمتها وإلاّ نَقَضَ السفينة ورد الخشبة إلى صاحبها.

قال محمد بن الحسن :فماذا تقول فى رجل غَصَب من رجل خيط إبريسم[1] فخاط به خُرجه ثم جاء صاحبه فاستحقه؟

قال الشافعى: قلت: له قيمته.

فكبَّر وكبّر أصحابه.

قال محمد بن الحسن : تركتَ قولك يا حجازى [2].

قال الشافعى : فقلت له على رسلك.. أرأيت لو أن صاحب القصر أراد أن يهدم قصره ويرد العمود إلى صاحبه ولا يعطيه قيمته كان للسلطان أن يمنعه من ذلك؟

قال محمد بن الحسن : لا.

قال الشافعى : فقلت: أرأيت أن صاحب السفينة لو أراد أن ينقض السفينة ويرد الخشبة إلى صاحبها، أكان للسلطان أن يمنعه؟

قال محمد بن الحسن : لا .

قال الشافعى: قلت: أرأيتَ أن صاحب الخرج لو أراد أن ينقض خُرجه ويخرج الخيط الذى خاط به الخرج ويرده على صاحبه أكان للسلطان أن يمنعه؟

قال محمد بن الحسن : نعم.

قال الشافعى : قلت : فكيف تقيس ما هو محظور بما هو ليس بممنوع. فالخيط لا يخرج سليماً إن نقض الخرج، ولذلك لم يرض الشافعى قياسه على العمود وعلى السفينة.

وجاءت زيادة فى رواية أخرى:

(١) الإبريسم: أحسن الحرير.

(٢) المراد أنه لم يقل يمزق الخرج.

قال الشافعي: فقلت لمحمد بن الحسن: يرحمك الله فتقيس علـــى مبـــاح بمحرَّم؟ هذا حرام عليه وهذا مباح له.

قال محمد بن الحسن : فكيف تصنع بالسفينة.

قال الشافعي : قلت: آمره أن يقرب إلى أقرب المراسى إليــه مرســى لا يهلك فيه ولا أصحابه فأنزع اللوح وأدفعه إلى أصحابه وأقول له: أصـــلح سفينتك واذهب.

قال محمد بن الحسن : أليس قال ﷺ : لا ضرر ولا ضرار» .

قال الشافعي: فقلت: من ضارَّه ؟ هو ضار نفسه.

قال الشافعي: وقلت له : ما تقول فى رجل : غصب من رجل جاريـــة فأوْلَدها عشرة من الولد. كلهم قد قرأ القرآن وخطب على المنابر وقضى بين المسلمين ثم أثبت صاحب الجارية بشاهدين عدلين أن هذا غصبه هذه الجارية وأولدها هؤلاء الأولاد، بم تحكم؟

قال محمد بن الحسن: أحكم بأولاده أرقاء لصاحب الجارية وأرد الجارية عليه.

قال الشافعي : فقلت: نشدتك الله أيهما أعظم ضرراً؟ إن رددت أولاده رقيقاً أو إن قلعت الساجة؟ [1]

- **الإمام الشافعي يجيد الرماية :**

لقد تعلم مع طلب العلم فن الرماية وقواعدها : يقول الشافعي: كانت همتى فى شيئين فى الرمى طلب العلم. فنلت من الرمى حتى كنتُ أصيب مـــن

(١) الخشبة المغتصبة التى كانت فى السفينة.

العشرة عشرة وسكت عن العلم، يقول عمرو بن سوَّاد فقلت له: أنـــت والله فى العلم أكثر منك فى الرمى[1].

- **الإمام الشافعي تظهر عليه الفراسة :**

«الفراسة: المهارة فى تعرُّف بواطن الأمور من ظواهرها» [2] وهى النظر فى الشىء والتثبت فيه ورؤية مخايل الخير والشر فيه. ولقد جمع كتبها الإمـــام الشافعى حين رحل إلى اليمن يقول الشافعى : خرجت إلى الـــيمن فى طلـــب كتب الفِراسة حتى كتَبْتُها وجمعتُها[3]. وكان ينظر فى النجوم وهو حـــدث ثم نفر منها ودفن كتبها «فعن أبى عبد الله عمرو بن عثمان المكىِّ ثنا ابن بنـــت الشافعى قال: سمعت أبى يقول: كان الشافعى وهو حدث ينظر فى النجوم وما نظر فى شىء إلاَّ فاق فيه فجلس يوماً وامرأة تطلق – ضربها طلق الـــولادة – فحسب فقال: تلد جارية عوراء على فرجها خال أسود تموت إلى كذا وكذا فولدت وكان كما قال : فجعل على نفسه أن لا ينظر فيه أبداً ودفن الكتب التى كانت عنده فى النجوم»[4].

- **موقفه من كُتب الأحناف :**

لقد جمع علم أبى حنيفة محمد بن الحسن وهو الذى دوَّنه وأبو يوســـف شغل بالإفتاء ولما رحل الإمام الشافعى إلى العراق جمع كُتُب محمد بن الحســـن وطفق يتدبرها ويرد عليها فعن أحمد بن سريح قال: سمعت الشافعى يقـــول:

(١) حلية الأولياء جـ ٩ ص٧٧.

(٢) المعجم الوجيز ص٤٦٦ مادة فرس.

(٣) حلية الأولياء جـ ٩ ص٧٨.

(٤) المرجع السابق.

أنفقت على كتب محمد بن الحسن ستين ديناراً ثم تدبرتُها فوضعت إلى جنب كل مسألة حديثاً – يعنى ردّاً [1]عليها.

- **بلاء الشافعي:**

يبدو أن الأئمة الأربعة كان بلاؤهم من الأمة ومن الأمراء واحداً ولقد وردت روايتان كانتا السبب فى بلاء الإمام الشافعي.

أمَّا الأولى:

لما خرج الشافعى إلى اليمن وقد خرج به الخارجى – أى أحد الخوارج على هارون الرشيد – وطعن الشافعى على الخارجى وأعرض عمن ساعده ورفع من قعد عنه فبلغ ذلك الخارجى ما يقول فيه فبعث إليه فأحضره عنده وهمَّ بقتله فلما سمع كلامه وتبيَّن له شرفه وفضله وعفَّته عفا عنه وعرض عليه قضاء اليمن فامتنع من ذلك. ثم أشخص هارون جيشه إلى ذلك الخارجى فقبض عليه وحُمل إلى بساط السلطان، وحمل معه الشافعى وأحضرا جميعاً بين يدى الرشيد فأمر بقتلهما فقال له الشافعي: يا أمير المؤمنين : إن رأيتَ أن تسمع كلامى وتجعل عقوبتك من وراء لسانى ثم تضمنى بعد ذلك إلى ما يليق لى من الشدة والرخاء فقال له: هات. فبيَّن له القصة وعرَّفه شرفه وذكر له كلاماً استحسنه هارون وأمره أن يعيده عليه، فأعاد تلك المعانى بألفاظ أعذب منها فقال له: هارون: كثَّر الله فى أهل بيتى مثلك، وكان محمد بن الحسن حاضراً فلم يقصِّر وخلَّى له السبيل[2].

---

(١) المرجع السابق ص٧٩.

(٢) المرجع السابق ص٨١.

أمَّا الثانية:

وردت مسألة من هارون الرشيد يدعو النَّاس إليهـــا وقـــد اســـتكتمها الفقهاء فأجابوه إلى ذلك وقبلوها منه طوعاً ومنهم كرهاً، فجيء بالمســـألة إلى الشافعى فلما نظر فيها قال: غفل والله أمير المؤمنين عن الحق وأخطأ المســـير عليه بهذا. وحقُّ الله علينا أوجب وأعظم من حق أمير المؤمنين وهذا خلاف ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ. وخلاف ما اعتقدتْهُ الأئمـــة والخلـــف. فكتب بذلك إلى هارون. فكتب فى حمله مقيَّداً فحُملَ حتى أُحْضرَ فى دار أمير المؤمنين فأُجلس فى بعض الحُجر ثم دخل محمد بن الحسن وبشر المريسى جميعاً، فقال لهما هارون الرشيد: القرشى الذى خالفنا فى مسألتنا قد أُحْضِر فى دارنا مقيداً، فما الذى تقولان فى أمره؟، فقال محمد بن الحسن: يا أمير المؤمنين، وقد بلغنى أيضاً أنه قد خالف صاحبه – أى مالك بن أنس – وقد رد عليه وعلى صاحبى أيضاً، وجعل لنفسه مقالة يدعو النَّاس إليها ويتشبه بالأئمة [1].

- **ضبط الشافعى وإحضاره والتجاؤه إلى الله :-**

فى رواية للفضل بن الربيع من روايات متعددة عن أبى نصر المخزومـــى الكوفى ثنا الفضل بن الربيع – حاجب هارون الرشيد – قال: دخلت علـــى الرشيد أمير المؤمنين فإذا بين يديه صيارة سيوف وأنواع من العذاب فقال لى: يا فضل : قلتُ: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: علىَّ بهـــذا الحجـــازى – يعـــنى الشافعى – فقلت :« إنا لله وإنا إليه راجعون»، ذهب هذا الرجل قال: فأتيت الشافعىَّ: فقلت له : أجب أمير المؤمنين، فقال: أُصَلِّى ركعـــتين. فصـــلى ثم

(١) المرجع السابق ص٨٢.

ركب بغلة كانت له، فصرنا معاً إلى دار الرشيد فلما دخلنا الـــدهليز الأول، حرَّك الشافعي شفتيه فلما دخلنا الدهليز الثانى حرك شفتيه، فلمـــا وصـــلنا بحضرة الرشيد قام إليه أمير المؤمنين كالمستريب له فأجلسه موضعه وقعد بـــين يديه يعتذر إليه وخاصَّةُ أمير المؤمنين قيام ينظرون إلى ما أعد له مـــن أنـــواع العذاب وهو جالس بين يديه فتحدثوا طويلاً ثم أذن له بالانصراف، فقـــال لى يا فضل: قلت : لبيك يا أمير المؤمنين، فقال: احمل بين يديه بدرةً [1] فحملتُ فلما سرنا إلى الدهليز الأول، قلت: بالذى صيَّر غضبه عليك رضًـــا إلاَّ مـــا عرَّفتنى ما قلتَ فى وجه أمير حتى رضى فقال لى: يا فضل، قلتُ: لبيك أيهـــا السيِّدُ الفقيه. قال: خذ منى واحفظ عنى.

﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـــهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـــهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [2]، اللهم إنى أعوذ بنـــور قدســـك، وببركـــة طهارتك، وبعظمة جلالك، من كل عاهة وآفة، وطارق الجـــن والإنـــس إلاَّ طارقاً يطرق بخير منك يا رحمن، اللهم بك ملاذى قبل أن ألوذ، وبك غيـــاثى قبل أن أغوث، يا مَنْ ذلَّت له رقاب الفراعنة، وخضعت له مغاليظ الجبـــابرة، ذكرك شعارى، وثناؤك دثارى، أنا فى حرزك ليلى ونهارى، ونومى وقـــرارى، أشهد أن لا إله إلاَّ أنت، اضرب علىَّ سرادقات حفظك، وقنى واغننى بخـــير منك يا رحمن. قال الفضل: فكتبتها، وكان الرشيد كثير الغضب علىَّ فكـــان كلما همَّ أن يغضب أحركها فى وجهه فيرضى، فهذا ما أدركت مـــن بركـــة

(١) كيس فيه مقدار من المال يُتعامل به و يقدَّم فى العطايا.
(٢) سورة آل عمران آية ١٨.

الشافعى[1]، لقد سمح الرشيد له بآلاف الدينارات ويفرقها فى الطريق ولا يأخذ منها شيئاً، ولقد وردت روايات متعددة فى هذا الأمر فمن أراد المزيد فليرجع إلى حلية الأولياء.

- **وصية الشافعى لمعلّم أولاد هارون الرشيد :**

لقد تحوَّل بُغض هارون الرشيد للشافعى إلىحب ووداد فكــان يتــردد عليه وفى زيارة للشافعى أرشد معلِّمَ أولاد هارون الرشيد إلى فلســفة علــم النفس التعليمى، وإلى أصوله فأفاد أولاد الرشيد وأفاد الأمة .

فعن نهشل بن كثير عن أبيه قال: أدخل الشافعى يوماً إلى بعض حجــر هارون الرشيد ليُستأذن له ومعه سراج الخادم فأُقْعِد عند أبى عبــد الصــمد مؤدِّب أولاد هارون الرشيد، فقال سراج للشافعى: يا أبا عبــد الله، هــؤلاء أولاد أمير المؤمنين وهذا مؤدِّبهم فلو أوصيته بهم فأقبل عليه فقال الشــافعى: لِيَكن أولُ ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين،

إصلاحَك نفسك،

فإن أعينهم معقودة بعينك.

فالحسنُ عندهم ما تستحسنه والقبيح عندهم ما تكرهه.

علِّمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه.

ولا تتركهم منه فيهجروه.

ثم روِّهم من الشعر أعفّه

و من الحديث أشرفه

---

(١) حلية الأولياء جـ ٩ ص٧٨ ، ٧٩.

ولا تُخرْجْهم من علم إلى غيره حتى يُحكموه.

فإن ازدحام الكلام فى السمع مضلّة للفهم[1].

- **دعوة الإمام الشافعى للعلم :**

عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعى يقول: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة [2].

و لقد بيَّن الشافعى ثمرة بعض العلوم فعن المزنى قال: سمعت الشافعى يقول:

من تعلّم القرآن عظمت قيمته.

و من نظر فى الفقه نَبُل مقداره.

ومن تعلّم اللغة رق طبعه،

و من تعلّم الحساب جَزُلَ رأيه،

و من كتب الحديث قويت حُجَّتُه،

و من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه[3].

- **منهج الشافعى فى فقهه وعدم خروجه عن الكتاب والسنة :**

لم ينتصر الشافعى لمذهبه ولم يجعل لنفسه فى الإسلام طريقاً يخالف طريق الإسلام فيقدِّم كتاب الله وسنَّة رسوله أولاً.

فعن الربيع بن سليمان قال: «سمعت الشافعى يقول: وقد سأله رجل عن

---

(١) صفة الصفوة جـ ١ ص٤٨٦.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق ص٤٨٥ ، ٤٨٦.

مسألة فقال: روى فيها كذا وكذا عن النبي ﷺ فقال له السائل : يا أبا عبد الله تقول به ؟ فرأيت الشافعي أُرْعِدَ وانتفض وقال: يا هذا أي أرض تُقلُّــني وأي سماء تُظلُّني إذا رويت عن رسول الله ﷺ حديثاً فلم أقل به ؟ نعم، على السمع والطاعة»[1].

وعن الربيع بن سليمان قال: «سمعت الشافعي يقول : إذا وجـــدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ودعوا ما قلت» [2].

وعن الربيع قال: «سمعت الشافعي وقد روى حديثاً فقال له بعض من حضر : تأخذ بهذا ؟ فقال : إذا رويت عن رسول الله ﷺ حديثاً صحيحاً فلم آخذ به فأنا أشهدكم أن عقلي قد ذهب ومد يديه »[3].

يقول أبو حاتم : حدثني يونس بن عبد الأعلى قال: قال محمد بن إدريس الشافعي : الأصل قرآن وسنة، فإن لم يكن فقياس عليهما، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله ﷺ وصحَّ الإسناد عنه فهو سُنَّة والإجماع أكثر من الخبر المنفرد والحديث على ظاهره، وإذا احتمل المعانى فما أشبه منها ظاهره أوْلاها به، وإذا تكافأت الأحاديث فأصحها إسناداً أوْلاها، وليس المنقطع بشيء ما عدا منقطع ابن المسيَّب ولا يقاس أصل على أصل، ولا يقال لأصل لِمَ، ولا كيف، وإنمـــا يقال للفرع: لِمَ. فإذا صح قياسه على الأصل صحَّ وقامت به الحجة.

وعن حرملة بن يحيى قال: سمعت محمد بن إدريس الشـــافعي يقـــول: البدعة بدعتان: بدعة محمودة وبدعة مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود ومـــا

(١) المرجع السابق ص٤٨٧.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.

خالف السنة فهو مذموم، واحتج بقول عمر بن الخطاب فى قيـــام رمضـــان: نعمت البدعة هى [1].

- **أقوال العلماء فى الإمام الشافعى:**

لقد أدلى العلماء بدلائهم فى الإمام الشافعى ونسوق شهادة كل واحـــد منهم.

الإمام أحمد بن حنبل :

عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: «يروى في الحديث أن الله تعالى يبعث على رأس كل مائة سنة من يصحح لهذه الأمة دينها. فنظرنا في المائـــة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز، ونظرنا في المائة الثانية فنراه الشافعي »[2].

وورد عن ابن راهويه قال: «قال: كنت مع أحمد بمكة فقال لي تعـــال حتى أريك رجلاً لم تر عيناك مثله، فأراني الشافعي »[3].

و عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: «قلت لأبي: يا أبت أي رجل كان الشافعي؟ سمعتك تكثر من الدعاء له. فقال: يا بني كان الشـــافعي كالشـــمس للدنيا ، وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف أو عوض؟ » [4]

وورد عن الميموني قال : «سمعت أحمد بن حنبل يقول : ستة أدعو لهم في السحر : أحدهم الشافعي »[5].

---

(١) المرجع السابق ص١٠٥.

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص٤٨٣.

(٣) المرجع السابق ص٤٨٤.

(٤) المرجع السابق ص٤٨٣.

(٥) المرجع السابق.

و عن محمد بن مسلم بن وَاره قال: قدمتُ من مصر فأتيتُ أبا عبد الله أحمد بن حنبل أُسَلِّم عليه قال: قدمتُ من مصر فأتيتُ أبا عبد الله أحمد بن حنبل أُسَلِّم عليه قال: كَتَبْتَ كُتُبَ الشافعي؟ قلتُ: لا، قال: لا . قال: فرَّطتَ. ما علمنا المجمل من المفصَّل، ولا ناسخ حديث رسول الله ﷺ من منسوخه حتى جالسنا الشافعي، قال: فحملني ذلك إلى أن رجعتُ إلى مصر وكتبتها ثم قدمت»[1].

و عن محمد بن جبريل قال : قال يحيى بن معين لَمّا قدم الشافعي : كان أحمد بن حنبل ينهى عنه فاستقبلتُه يوماً والشافعي راكب بغلة وهو يمشي خلفه فقلت: يا أبا عبد الله أنت تنهانا عنه وأنت تتبعه؟ قال: اسكت إن لزمت البغلة انتفعتُ»[2].

و عن محمد بن الفضل البزار قال: سمعت أبي يقول: «حججت مع أحمد بن حنبل ونزلت معه فى مكان واحد أو فى دار بمكة، وخرج أبو عبد الله باكراً وخرجت أنا بعده فلما صليت الصبح دُرْتُ فى المسجد فجئت إلى مجلس سفيان بن عيينة وكنت أدور مجلساً مجلساً طلباً لأبى عبد الله أحمد بن حنبل حتى وجدته عند شاب أعرابى وعليه ثياب مصبوغة وعلى رأسه جُمَّة فراجية حتى قعدت عند أحمد بن حنبل فقلت: أبا عبد الله، تركت ابن عيينة وعنده الزهرى وعمرو بن دينار وزياد بن علاقة ومن التابعين ما الله به عليم؟ قال: اسكت، فإن فاتك حديث بعُلوّ تجده بنزول ولا يضرك فى دينك ولا فى عقلك ولا فى فهمك، إن فاتك عقل هذا الفتى أخاف أن لا تجده إلى يوم القيامة،

---

(١) حلية الأولياء جـ ٩ ص٩٧.

(٢) المرجع السابق ص٩٩.

ما رأيت أفقه فى كتاب الله من هذا الفتى القرشىّ، قلتُ من هذا؟ قال: محمد بن إدريس الشافعى»[1].

وورد عن محمد بن ماجه القزوينى قال: جاء يحيى بن معين يوماً إلى أحمد بن حنبل فبينا هو عنده إذ مرَّ الشافعى على بغلته فوثب أحمد فسلّم عليه وتبعه، فأبطأ ويحيى جالس، فلماجاء قال يحيى: يا أبا عبد الله كم هذا؟ فقال أحمد: دع هذا عنك إن أردت الفقه فالزم ذنب البغلة [2].

وورد عن على بن حسان ثنا ابن إدريس قال: أخبرنى من إخواننا من أهل بغداد. قال: قال أحمد بن حنبل : قدم علينا نعيم بن حماد وحثنا على طلب المسند . فلما قدم علينا الشافعى : وَضَعَنا على الحجة البيضاء[3].

وورد عن أبى العباس الساجى قال: سمعت أحمد بن حنبل ما لا أحصيه فى المناظرة تجرى بينى وبينه وهو يقول: هكذا، قال: أبو عبد الله الشافعى ومن ذلك أنه كان يقول: سجدتا السهو قبل السلام، فى الزيادة والنقصان، وقال أحمد بن حنبل: ما رأيت أحداً أتبع للأثر من الشافعى [4].

وورد عن عبد الملك بن حبيب بن ميمون بن مهران قال: قال لى أحمد ابن حنبل: مالك لا تنظر فى كتب الشافعى ؟ فما من أحد وضع الكتب أتبع للسنة من الشافعى [5].

---

(١) حلية الأولياء جـ ٩ ص٩٨ ، ٩٩.
(٢) المرجع السابق ص٩٩.
(٣) المرجع السابق ص١٠١.
(٤) المرجع السابق ص٩٩ ، ١٠٠.
(٥) المرجع السابق ص١٠٠.

يحيى بن معين :

حدثنا أحمد بن إسحاق ثنا أبو الطيب أحمد بن روح الزعفـراني قـال: كنت مع يحيى بن معين في جنازة فقال له رجل: يا أبا زكريـا مـا تقـول في الشافعي؟ قال: دع هذا عنك، لو كان الكذب له مطلقاً لكانت مروءته تمنعه أن يكذب[1].

بشر المريسي :

ورد عن أبي ثور عن ابن البنَّاء قال: سمعت بشر المريسي يقول: رأيـت بالحجاز فتىً لئن بقي ليكونن – أظنه قال – واحد الدنيا، فلما كان بعد ذلك قال لي بشر: إن الفتى الذى قلت لك قد قَدم، إذهب بنا إليه، فسلمنا عليه ثم تساءلنا، فجعل الشافعي: يصيب وبشر يخطئ، فلما خرجنا قال: كيف رأيته؟ قال: قلتُ: كنتَ تخطئ وكان يصيب، قال: ما رأيت أفقه منه»[2].

وورد عن زكريا الساجي ثنا الزعفراني قال: حج بشر المريسي سنةً إلى مكة ثم قدم فقال: لقد رأيت بالحجاز رجلاً ما رأيت مثله سائلاً ولا مجيباً يعني الشافعي[3].

سفيان بن عيينة :

عن سويد بن سعيد يقول: كنا عند سفيان بن عيينة فجاء محمـد بـن إدريس فجلس فروى ابن عيينة حديثاً رقيقاً فغشي على الشـافعي : فقيـل يا أبا محمد مات محمد بن إدريس فقال ابن عيينة : إن كان قد مات محمد بن

(1) المرجع السابق ص٩٧.
(2) المرجع السابق ص٩٥.
(3) المرجع السابق ص٩٥.

إدريس فقد مات أفضل أهل زمانه[1].

أبو جعفر الترمذى :

ورد عن إبراهيم بن جعفر بن خليل المقرى قال: سمعت أبا جعفر الترمذى يقول: أردت أن أكتب كتبَ الرأى فرأيت النبى ﷺ فى المنام فقلت: يا رسول الله أكتب رأى مالك؟ قال: ما وافق منه سنتى، فقلت: يا رسول الله؟ فأكتب رأى الشافعى، فقال النبى ﷺ : إنه ليس برأى، إنه ردٌّ على من خالف سنتى[2].

العزيزى :

و حدثنا الربيع بن سليمان حدثنى أبو الليث الخفاف وكان معدلاً عند القضاة قال: أخبرنى العزيزى – وكان متعبداً – قال: رأيت ليلة مات الشافعى فى المنام كأنه يقال: مات النبى ﷺ فى هذه الليلة، فكان يقول: أنت تقيل فى مجلس عبد الرحمن الزهرى فى المسجد الجامع وكأنه يقال له: تخرج به بعد العصر فأصبحت فقيل لى: مات، وقيل: نخرج به بعد الجمعة، فقلت : الذى رأيته فى المنام نخرج به بعد العصر، وكأنى رأيت فى النوم حين أخرج به كان معه سرير امرأة رثة السرير فأرسل أمير مصر أن لا يُخْرَج به إلاّ بعد العصر، فحبس إلى بعد العصر قال: العزيزى : شهدت جنازته، فلما صرت إلى الموضع الواسع رأيت سريراً مثل سرير تلك المرأة الرثة السرير مع سريره [3].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق ص١٠٠.

(٣) المرجع السابق ص١٠١.

أطوار فى حياة الشافعى

ولد الشافعى فى غَزَّة عام ١٥٠هـ وبين غزَّة وعسقلان عاش مع أمه يتيماً عامين ثم ذهبت به الأم إلى مكة المكرمة فلما بلغ عمره الرابعة طفق يحفظ القرآن الكريم، وأتم حفظه فى السابعة من عمره، وخرج بعد ذلك إلى قبيلة هذيل فتعلم كلامها وشرب طبعها فلقد كانت أفصح العرب وتعلم العربية ووعاها واستعان بها على الفقه وكان يحفظ من شعر الهذيليين عشرة آلاف بيت عدا ما حفظه من شعر العرب وخطبهم وبلاغتهم.

أخذ العلم فى المسجد الحرام بمكة عن أئمة الفقه والتفسير والحديث واللغة وجلس فى حلقة مسلم بن خالد الزنجى، مفتى مكة وفقيهها وسفيان بن عيينة وكان سفيان يقول: هذا أفضل فتيان أهل زمانه.

ثم غادر مكة إلى المدينة المنورة ليأخذ الحديث عن الإمام مالك شيخ المحدثين.

ثم ذهب إلى اليمن وولى قضاء اليمن بمساعدة مصعب بن عبد الله القرشى الذى وصَّى عليه والى اليمن . وفى اليمن لقى جماعة من العلماء والمحدثين فأخذ عنهم وأفاد منهم. كمطرف بن مازن الصنعانى وعمرو بن أبى مسلمة صاحب الأوزاعى ويحيى بن حسان صاحب الليث بن سعد.

واتهمه حساده والحاقدون عليه بالعلوية ورفع أمره إلى الرشيد فاستدعاه وساءله ونفى الشافعى التهمة عن نفسه وظل ببغداد.

و لزم بغداد ولم يلبث أن عاد إلى مكة وبعد أحد عشر عاماً عاد إلى بغداد سنة ١٩٥هـ وكان ذلك فى خلافة الأمين فقضى فى العراق عامين فجلس علماء بغداد إليه وأخذوا عنه العلم.

ثم رحل إلى مصر وكان قد نشأ فيها مدارس فقهية نبغ فيها عبد الله بن وهب. والليث بن سعد، وتلاميذ الليث بن سعد إسحاق بن الفرات وإسحاق بن أبي بكر . وقاد الشافعي حركة فقهية كان لها صداها العميق في العالم الإسلامي.

وكان أهل مصر يعتمدون على عبد الله بن عمرو في فتاويه، ويزيد بن حبيب في فتاويه.

و في رحلة الشافعي الثانية إلى بغداد في عهد الأمين صارت له حلقة علمية في دار السلام تتلمذ فيها كثيرون منهم الكرابيسي والزعفراني وأبو ثور، والإمام أحمد بن حنبل، وألّف الشافعي كتاب «الحجة» الذي رواه عنه هؤلاء الأربعة، ثم ألف كتاب «الرسالة» في مصر وهو كتاب تحمل أبوابه أصول الدفاع عن السنة وشروط صحة الحديث . يقول المزني – تلميذ الشافعي– : قرأت كتاب الرسالة خمسمائة مرة وما من مرة منها إلاّ واستفدت بفائدة جديدة لم أستفدها في الأخرى. وبالرسالة وضع الشافعي علماً كاملاً هو علم أصول الفقه، ولقد أذهلت الرسالة الإمام أحمد وابن مهدي، وألف كتاب «الأم» وألف كتاب «أحكام القرآن» وكتاب «اختلاف الأحاديث» وكتاب «إبطال الاستحسان» وكتاب «جماع العلم» وكتاب «القياس» وكتاب «الرد على محمد بن الحسن» وكتاب «اختلاف مالك والشافعي» وكتاب «اختلاف علي وعبد الله بن مسعود» وكتاب «ما اختلف فيه أبو حنيفة وابن أبي ليلى عن أبي يوسف» وكتاب «خلاف ابن عباس» وكتاب «سير الأوزاعي» وكتاب «مسند الشافعي» .

لقد تزوج الشافعى من أم ولد «دنانير» وأنجب منها أبـا الحسـن سـنة ٢٠٢هـ وخصص له مرضعة أندلسية اسمها «فوز» فكان له ولدان: أبو عثمان محمد. وأبو الحسن، وابنتان هما: زينب وفاطمة. وهؤلاء مات عنهم الإمام.

- مرض الإمام ووفاته :

لقد مرض الشافعى مرضاً مزمناً لازمة فترة طويلة هو مرض البواسـير وسقط القلم من يده وحلّت به رحمة الله ففاضت روحه فى يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر رجب ٢٠٤هـ - ٨٢٠ م، ودفن بمصر، وقد بُنى علـى قبره قبة عام ٦٠٨هـ بناها الملك الكامل الأيوبى وأجرى السلطان قايتبـاى إصلاحات بضريحه عام ٨٨٥هـ وجدد القبـة علـى بـك الكـبير عـام ١١٨٦هـ وبنت وزارة الأوقاف المسجد ١٣٢٢هـ [١].

و عن الربيع قال : كنا جلوساً في حلقة الشافعي بعد موتـه بيسـير، فوقف علينا أعرابي فسلم ثم قال لنا: أين قمر هذه الحلقة وشمسها؟ فقلنا توفي رحمه الله. فبكى بكاءً شديداً ثم قال : رحمه الله وغفر له فلقد كان يفتح ببيانه منغلق الحجة، ويسد على خصمه واضح المحجة، ويغسل من العـار وجوهـاً مسودة، ويوسع بالرأي أبواباً منسدة، ثم انصرف.

و عنه قال : رأيت الشافعي بعد وفاته بالمنام فقلت : يا أبا عبد الله ما صنع الله بك ؟ قال : أجلسني على كرسي من ذهب ونثـر علـي اللؤلـؤ الرطب[٢].

(١) ديوان الشافعى من ص١٤ - ٢١ بتصريف.

(٢) صفة الصفوة جـ ١ ص٤٨٨.

- **عظمُ نفس الشافعي**

للشافعي نفسٌ عظيمةٌ تتسم بالشمم والاعتزاز، ونلمس ذلك فى هــذه الأبيات التى يتحدث بها عن نفسه:

وَلَولا الشــعرُ بالعُلَمــاء يُــزري	لَكُنتُ اليَــومَ أَشــعَرَ مِــن لَبيــدِ
وَأَشجَعَ في الوَغي من كُــلِّ لَيــثٍ	وَآلِ مُهَلَّـــبٍ وَبَـــني يَزيـــدِ
وَلَـــولا خَشــيَّةُ الــرَحمَنِ رَبّــي	حَسِبتُ النــاسَ كُلَّهُــمُ عَبيــدي

و من ثقة الإمام الشافعى بنفسه؛ أنه ما يهمه -عند مناظرة أحــد- أن يكون هو الذى يظهر كما يفعل سائر الخلق فهو يخالفهم فى هــذا ويحــب أن تظهر الحجة على لسان خصمه.

فعن أحمد بن خالد الخلال قال: سمعت محمد بن إدريس الشافعى يقول: ما ناظرت أحداً فأحببتُ أن يخطئ.

و عن الحسين الكرابيسى يقول: سمعت الشافعى يقول: ما ناظرت أحداً قط إلاَّ أحببت أن يوفَّق ويُسدَّد ويعان، ويكون عليه رعاية من الله وحفظ، وما ناظرت أحداً إلاَّ ولمْ أبال بيَّن الله الحق على لسانى أو لسانه [(١)].

ومما يدل على عزة نفس الشافعى قوله:

أَمطري لُؤلُــؤاً جبــالَ سَرَنديـــ	ـــبَ وَفيضي آبارُ تَكــرورَ تِــبرا
أَنا إِن عشتُ لَستُ أَعــدمُ قوتــاً	وَإِذا مُــتُّ لَســتُ أَعــدمُ قَــبرا
هِمَّـــتي هِمَّـــةُ المُلـــوكِ وَنَفســـي	نَفسُ حُــرٍّ تَــرى المَذَلَّــةَ كُفــرا
وَإِذا ما قَنِعــتُ بِــالقوتِ عُمــري	فَلمـــاذا أَزورُ زَيـــداً وَعَمـــرا

---

(١) صفة الصفوة جـ ١ ص٤٨٤.

قيل إن هذه الأبيات للبارودى، ويجوز أن يكون البارودى استشهد بها.

- **من حِكَم الإمام الشافعى :**

من حكمه فى طلب العلم:

– طلب العلم أفضل من صلاة النافلة .

– طالب العلم يحتاج إلى ثلاث : إحداها حسن ذات اليد، والثانية : طول عمر، والثالثة : يكون له ذكاء.

– استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر .

– من ضحك منه في مسألة لم ينسها أبداً.

– وعن الربيع بن سليمان: قال لي الشافعي : يا ربيع رضا الناس غاية لا تُدْرَك، فعليك بما يصلحك فالزمه فإنه لا سبيل إلى رضاهم، واعلم أنه من تعلم القرآن جَلّ في عيون الناس، ومن تعلم الحديث قويت حجته، ومن تعلم النحو هيب، ومن تعلم العربية رق طبعه، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن تعلم الفقه نبل قدره ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه، وملاك ذلك كله التقوى[1].

- **أشد الأعمال فى نظر الشافعى :**

عن الربيع بن سليمان : قال: أشد الأعمال ثلاثة : الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى ويخاف[2].

(١) المرجع السابق ص٤٨٥.

(٢) المرجع السابق ص٤٨٤.

• الاعتدال في معاملة الناس:

– يقول الشافعي ليونس بن عبد الأعلى: يا يونس الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط.

– وقال له أيضاً: يا يونس إذا بلغك عن صديق لك ما تكرهه فإياك أن تبادره بالعداوة وقطع الولاية فتكون ممن أزال يقينه بشك، ولكن ألقه وقل له: بلغني عنك كذا وكذا واحذر أن تسمي له المُبلِّغ، فإن أنكر ذلك فقل له: أنت أصدق وأبر، لا تزيدن على ذلك شيئاً، وإن اعترف بذلك فرأيت له في ذلك وجهاً لعذر فاقبل منه، وإن لم تر ذلك فقل له: ماذا أردت بما بلغني عنك؟ فإن ذكر ماله وجه من العذر فاقبل منه، وإن لم تر لذلك وجهاً لعذر وضاق عليك المسلك فحينئذ أثبتها عليه سيئة، ثم أنت في ذلك بالخيار: إن شئت كافأته بمثله من غير زيادة وإن شئت عفوت عنه والعفو أقرب للتقوى وأبلغ في الكرم لقوله الله تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُها فَمَن عَفَا وأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ (١)، فإن نازعتك نفسك بالمكافأة فأفكر فيما سبق له لديك من الإحسان فعدها ثم أبدر له إحساناً بهذه السيئة، ولا تبخسن باقي إحسانه السالف بهذه السيئة فإن ذلك الظلم بعينه. يا يونس إذا كان لك صديق فشد يديك به فإن اتخاذ الصديق صعب ومفارقته سهل»(٢).

---

(١) سورة الشورى آية ٤٠.

(٢) صفة الصفوة جـ ١ ص٤٨٤ ، ٤٨٥.

جولة فى رياض شعر الإمام الشافعى

سبق أن عرفنا أن الشافعى شغل فى أول حياته بالشعر وتنقل فى البادية من أجل هذا الغرض ثم أعرض عنه وولّى وجهه شطر السنة والفقه، ولقد ترك الشعر فيه أثراً وقال الشعر وله ديوان حقّقه الأستاذ الدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجى بعنوان «ديوان الشافعى، حبر الأمة وإمام الأئمة»

وقامت بنشره مكتبة الكليات الأزهرية، وندخل رياض هذا الـديوان نقتطف بعض أزاهيره ونستمتع بحلاوة أريجه ونقف حيال كل شـجرة زهـر نجنيها وننشرها.

تحت عنوان : «دع الدنيا تفعل ما تشاء»

دَعِ الأَيّـامَ تَفعَـلُ مـا تَشـاءُ ... وَطِب نَفسـاً إِذا حَكَـمَ القَضـاءُ
وَلا تَجـزَع لِحادِثَـةِ اللَيـالي ... فَمـا لِحَـوادِثِ الـدُنيا بَقـاءُ[1]

ثم يقول:

وَلا تَرجُ السَـماحَةَ مِـن بَخيـلٍ ... فَمـا في النـارِ لِلظَمـآنِ مـاءُ
وَرِزقُـكَ لَـيسَ يُنقِصُـهُ التَـأَنّي ... وَلَيسَ يَزيدُ في الـرِزقِ العَنـاءُ[2]
وَلا حُـزنٌ يَـدومُ وَلا سُـرورٌ ... وَلا بُـؤسٌ عَلَيـكَ وَلا رَخـاءُ
إِذا مـا كُنـتَ ذا قَلـبٍ قَنـوعٍ ... فَأَنـتَ وَمالِـكُ الـدُنيا سَـواءُ
وَمَـن نَزَلَـت بِسـاحَتِهِ المَنايـا ... فَـلا أَرضٌ تَقيـهِ وَلا سَـماءُ
وَأَرضُ اللَـهِ واسِـعَةٌ وَلَكِـن ... إِذا نَزَلَ القَضـا ضـاقَ الفَضـاءُ
دَعِ الأَيّـامَ تَغـدِرُ كُـلَّ حِـينٍ ... فَما يُغـني عَـنِ المَـوتِ الـدَواءُ

(١) الجزع: ضد الصبر . وحادثة الليالى: مصائبها.
(٢) العناء: التعب.

لا تهزأ بالدعاء :

قال الشافعي:

أتهـــزأُ بالـــدُعاءِ وَتَزدَريــــه ... وَما تَدري بما صَـنَعَ الـدُّعاءُ[1]

سِهامُ اللَيــلِ لا تُخطِــي وَلَكِــن ... لَهـــا أَمَـــدٌ وَلِلأَمَـــد انقضــاءُ[2]

هكذا الحظ :

تَموتُ الأُسدُ في الغابـــاتِ جوعـــاً ... وَلَحمُ الضَـــأنِ تَأكُلُـــهُ الكِـــلابُ

وَعَبـــدٌ قَـــد يَنـــامُ عَلـــى حَريـــرٍ ... وَذو نَسَـــبٍ مَفارِشُـــهُ التُـــرابُ

الشيب نذير الفناء :

خَبَت نارُ نَفسي باشتعالِ مَفـــارِقي ... وَأَظلَمَ لَيلـــي إذ أَضـــاءَ شِـــهابُها

أَيا بومَةً قَد عَشَّشَت فَوقَ هـــامَتي ... عَلى الرغمِ مِنّي حينَ طارَ غُرابُهـــا

رَأَيت خَرابَ العُمرِ منّـــي فَـــزُرتني ... وَمَأواك من كُلِّ الـــديارِ خَرابُهـــا

أَأَنعَمُ عَيشاً بَعدَ ما حَـــلَّ عارِضِــي ... طَلائِعُ شَيبٍ لَيسَ يُغــني خَضـــابُها

وعِزَّةُ عُمرِ المـــرء قبـــل مشـــيبه ... وقد فَنِيَتْ نفـــسٌ تـــولّى شـــبابُها

وَمَن يَذُق الـــدُنيا فَـــإِنّي طَعَمتُهـــا ... وَسِـــيقَ إلَينـــا عَـــذبُها وَعَـــذابُها

فَلَم أَرَهـــا إلّـــا غُـــروراً وَبـــاطِلاً ... كَما لاحَ في ظَهرِ الفَلاةِ سَـــرابُها[3]

وَمـــا هِـــيَ إِلاَّ جيَفَـــةٌ مُســـتَحيلَةٌ ... عَلَيها كِـــلابٌ هَمُّهُـــنَّ اجتِـــذابُها

---

(١) تزدريه: تحتقره.

(٢) الأمد : الغاية و منتهى الشيء

(٣) لاح: ظهر وبدا

فَإن تَجتَنبها كُنتَ سِــلماً لأَهلهــا وَإن تَجتَــذبها نازَعَتــكَ كلابُهــا

فَطوبى لِنَفسٍ أُولِعَت قَعــرَ دارِهــا مُغَلِّقَةَ الأَبوابِ مُرخَــىً حِجابُهــا

الرد على سَفهِ السفيه :-

يُخــاطِبُني السَــفيهُ بِكُــلِّ قُــبحٍ فَــأَكرَهُ أَن أَكــونَ لَــهُ مُجيبــا

يَزيــدُ سَــفاهَةً فَأَزيــدُ حلمــاً كَعــودٍ زادَهُ الإِحــراقُ طيبــا

إِذا نَطَــقَ السَــفيهُ فَــلا تَجبــهُ فَخَــيرٌ مِــن إِجابَتِــه السُــكوتُ

فَــإِن كَلَّمتَــهُ فَرَّجــتَ عَنــهُ وَإِن خَلَّيتَــهُ كَمَــداً يَمــوتُ

دع الأوطان واغترب للرزق :

ما في المَقامِ لِذي عَقــلٍ وَذي أَدَبِ مِن راحَةٍ فَدَعِ الأَوطانَ وَاغتَــرِبِ

سافِر تَجِد عِوَضاً عَمَّــن تُفارِقُــهُ وَانصَب فَإِنَّ لَذيذَ العَيشِ في النَصَبِ

إِنّي رَأَيتُ وُقــوفَ المــاءِ يُفسِــدُهُ إِن ساحَ طابَ وَإِن لَم يَجرِ لَم يَطِبِ

وَالأُسدُ لَولا فِراقُ الأَرضِ ماافتَرَسَت وَالسَهمُ لَولا فِراقُ القَوسِ لَم يُصِبِ

وَالشَمسُ لَو وَقَفَت في الفُلكِ دائِمَةً لَمَلَّها الناسُ مِن عُجمٍ وَمِن عَــرَبِ

وَالتِبرُ كَالتُربِ مُلقــىً في أَماكِنِــهِ وَالعودُ في أَرضِهِ نَوعٌ مِنَ الحَطَبِ[1]

فَإِن تَغَــرَّبَ هَــذا عَــزَّ مَطلَبُــهُ وَإِن تَغَــرَّبَ ذاكَ عَــزَّ كَالــذَهَبِ

فضل آل رسول الله ﷺ :

آلُ الــــنَّبِيِّ ذريعــــتي وهُمُــــوا إليــــه وســــيلتي

أرجــــو بهــــم أُعْطَــــى غــــداً بيــــدى الــــيمين صــــحيفتي

(١) التبر: هو تراب الذهب المخلوط بتراب الأرض. و العود: هو عود البخور.

وقال أيضاً:

يا آلَ بَيتِ رَسولِ اللَهِ حُبُّكُمُ ... فَرضٌ منَ اللهِ في القُرآنِ أَنزَلَهُ

يَكفيكُمُ مِن عَظيمِ الفَخرِ أَنَّكُمُ ... مَن لَم يُصَلِّ عَلَيكُم لا صَلاةَ لَهُ

و قال أيضاً: فى حُبِّ الإمام عليّ وسبطيه وفاطمة:

إذا في مَجلِسٍ نَذكُر عَليّاً ... وَسِبطَيْهِ وَفاطِمَةَ الزَكِيَّه

يُقالُ تَجاوَزوا يا قَومُ هَذا ... فَهَذا مِن حَديثِ الرافِضيَّه

بَرِئتُ إلى المُهَيمِنِ مِن أُناسٍ ... يَرَونَ الرَفضَ حُبَّ الفاطِمِيَّه

بعض القضاة أَفِفَ النزاهة :-

قضاة الدهر قد ضلُّوا ... فقد بانت خسارتُهُمْ

فباعوا الدين بالدنيا ... فما ربحت تجارتُهُمْ

سمات الصديق فى نظر الشافعى :-

أُحبُّ منَ الإخوان كُلَّ مُواتي ... وَكُلَّ غَضيضِ الطَرفِ عَن عَثَراتي

يُوافِقُني في كُلِّ أَمرٍ أُريدُهُ ... وَيَحفَظُني حَيّاً وَبَعدَ مَماتي

فَمَن لي بِهَذا لَيتَ أَنّي أَصَبتُهُ ... لَقاسَمتُهُ ما لي مِنَ الحَسَناتِ

تَصَفَّحتُ إِخواني فَكانَ أَقَلَّهُم ... عَلى كَثرَةِ الإخوانِ أَهلُ ثِقاتي

الفرج من الله قريب :-

وَلَرُبَّ نازِلَةٍ يَضيقُ لَها الفَتى ... ذَرعاً وَعِندَ اللَهِ مِنها المَخرَجُ

ضاقَت فَلَمّا استَحكَمَت حَلَقاتُها ... فُرِجَت وَكُنتُ أَظُنُّها لا تُفرَجُ

ويقول فى هذا الشأن:

صبراً جميلاً مـــا أقـــرب الفَـــرَجَ   مـــن راقَـــبَ الله فى الأمـــور نجـــا

مـــــن صـــــدقَ اللهَ لم يَنَلْـــــهُ أذىً   ومن رَجَاه يكـــون حيـــث رجـــا

الصمت حكمة :-

قالوا سَكَتَّ وَقَد خُوصِمتَ قُلتُ لَهُم   إِنَّ الجَوابَ لِبابِ الشَـــرِّ مِفتـــاحُ

وَالصَمتُ عَن جاهِلٍ أَو أَحمَقٍ شَرَفٌ   وَفيهِ أَيضاً لِصَونِ العِرضِ إِصـــلاحُ

أَما تَرى الأُسدَ تُخشى وَهِيَ صامِتَةٌ   وَالكَلبُ يُخشى لَعَمري وَهوَ نَبّاحُ

نفور الشافعى من الأخلاق السيئة :-

لَيتَ الكِلابَ لَنا كانَت مُجـــاوِرَةً   وَلَيتَنا لا نَرى مِمّـــا نَـــرى أَحَـــدا

إِنَّ الكِلابَ لَتَهـــدي في مَواطِنِهـــا   وَالخَلقُ لَيسَ بِهـــادٍ شَـــرُّهُم أَبَـــدا

فَاِهرُب بِنَفسِكَ وَاِستَأنِس بِوِحدَتِها   تَبقى سَعيداً إِذا ما كُنـــتَ مُنفَـــرِدا

صحبة النّاس :-

إِنّي صَحِبتُ الناسَ ما لَهُـــم عَـــدَدُ   وَكُنتُ أَحسَبُ أَنّي قَد مَلَأتُ يَدي

لَمّا بَلَـــوتُ أَخِلّائـــي وَجَـــدتُهُمُ   كَالدَهرِ في الغَدرِ لَم يُبقوا عَلى أَحَدِ

إِن غِبتُ عَنهُم فَشَرُّ الناسِ يَشتُمُني   وَإِن مَرِضتُ فَخَيرُ الناسِ لَم يَعُـــدِ

وَإِن رَأَوني بِخَيرٍ ســـاءَهُم فَرَحـــي   وَإِن رَأَوني بِشَرٍّ سَـــرَّهُم نَكَـــدي

رد الشافعى على من يتمنى موته:-

تَمَنّى رِجالٌ أَن أَموتَ وَإِن أَمُـــت   فَتِلكَ سَبيلٌ لَستُ فيهـــا بِأَوحَـــدِ

وَما مَوتُ مَن قَد ماتَ قَبلي بضائري ... وَلا عَيشُ مَن قَد عاشَ بَعدي بمُخلدي
لَعَلَّ الَّذي يَرجو فَنـائي وَيَـدَّعي ... به قَبلَ مَوتِي أن يَكونَ هُوَ الـرَدي

عداوة الحساد:-

كلُّ العداوة قد تُرجـى مودَّتُهـا ... إلّا عداوةَ من عاداكَ مـن حسَـد

فوائد السفر:

تَغَرَّب عَنِ الأَوطانِ في طَلَبِ العُـلا ... وَسافِر فَفي الأَسفارِ خَمسُ فَوائِـد
تَفَرُّجُ هَـمٍّ وَاِكتِسـابُ مَعيشَـةٍ ... وَعِلـمٌ وَآدابٌ وَصُـحبَةُ ماجِـد

شوقه إلى مصر وبلاده:-

لَقَد أَصبَحَت نَفسي تَتوقُ إِلى مِصرِ ... وَمِن دونِها أَرضُ المَهامَـةِ وَالقَفـرِ
فَوَاللَـهِ لا أَدري أَلِلفَـوزِ وَالغِـنى ... أُساقُ إِلَيهـا أَم أُسـاقُ إِلى القَـبرِ

قال الشافعي: فخرج فقُطع عليه الطريق فأخذ قطاعُ الطريق منه كـل شيء فدخل بعض المساجد وليس عليه إلاَّ ثياب رديئة فدخل النَّاس وخرجوا ولم يلتفت إليه أحد، فقال:

عَلَيَّ ثِيـابٌ لَـو تُبـاعُ جَميعُهـا ... بِفَلسٍ لَكانَ الفَلسُ مِنـهُنَّ أَكثَـرا
وفيهِنَّ نَفسٌ لَـو تُقـاسُ بِبَعضِـها ... نُفوسُ الوَرى كانَت أَجَلَّ وَأَكبَـرا
ما ضَرَّ نَصلَ السَيفِ إِخلاقُ غِمدِه ... إِذا كانَ عَضباً حَيثُ وَجَّهتَهُ فَرى[1]

(١) إخلاق الغِمد: تمزقه و تهالكه. وعضباً: أى ماضياً قاطعاً. و فَرى: شقّ و قطع.

الدهر يومان :-

الدَهرُ يَومان ذا أَمـــنٌ وَذا خَطَـــرُ ... وَالعَيشُ عَيشان ذا صَفوٌ وذا كَـــدَرُ
أَما تَرى البَحرَ تَعلو فَوقَـــهُ جيَـــفٌ ... وَتَســـتَقرُّ بأَقصـــى قاعِـــهِ الـــدُرَرُ
وَفي السَماءِ نُجومٌ لا عِـــدادَ لَهـــا ... وَلَيسَ يُكسَفُ إِلّا الشَمسُ وَالقَمَـــرُ

الصديق الذى يقف معك فى الشدائد:-

صَديقٌ لَـــيسَ يَنفَـــعُ يَـــومَ بُـــؤسٍ ... قَريـــبٌ مِـــن عَـــدوٍّ في القِيـــاسِ
وَما يَبقى الصَـــديقُ بِكُـــلِّ عَصـــرٍ ... وَلا الإِخـــوانُ إِلّـــا لِلتَآسِـــي
عَمَرتُ الدَهرَ مُلتَمِســـاً بِجُهـــدي ... أَخـــا ثِقَـــةٍ فَأَلهـــاني التَماســـي
تَنَكَّـــرَتِ الـــبِلادُ وَمَـــن عَلَيهـــا ... كَـــأَنَّ أُناسَـــها لَيســـوا بِناسِـــي

وقفة الحرِّ بباب نحس:-

لَقَلـــعُ ضِـــرسٍ وَضَـــربُ حَـــبسٍ ... وَنَـــزعُ نَفـــسٍ وَرَدُّ أَمـــسِ
وَقَـــرُّ بَـــردٍ وَقَـــودُ فَـــردٍ ... وَدَبـــغُ جِلـــدٍ بِغَـــيرِ شَـــمسِ[1]
وَأَكـــلُ ضَـــبٍّ وَصَـــيدُ دُبٍّ ... وَصَرفُ حَبٍّ بِـــأَرضِ خَـــرسِ[2]
وَنَفـــخُ نـــارٍ وَحَمـــلُ عـــارٍ ... وَبَيـــعُ دارٍ بِرُبـــعِ فِلـــسِ
وَبَيـــعُ خُـــفٍّ وَعَـــدمُ إِلـــفٍ ... وَضَربُ إِلـــفٍ بِحَبـــلِ قَلـــسِ[3]
أَهـــوَنُ مِـــن وَقفَـــةِ الحُـــرِّ ... يَرجـــو نَـــوالاً بِبـــابِ نَحـــسِ[4]

---

(١) وقَرّ برد: شدة البرد. و قود فرد: أى قصاص.
(٢) أرض خرس: أى لا تنبت.
(٣) حبل قلس: حبل سفينة
(٤) النوال : العطاء.

شكواه إلى وكيع :-

شَكَوتُ إلى وَكيعٍ سوءَ حِفظي ... فَأَرشَدَني إلى تَركِ المَعاصي
وَأَخبَرَني بِأَنَّ العِلمَ نورٌ ... وَنورُ اللَهِ لا يُهدى لِعاصي

قف بالمحصّب :-

يا راكِباً قِف بِالمُحَصَّبِ مِن مِنىً ... وَاهتِف بِقاعِدِ خَيفِها وَالناهِضِ
سَحَراً إِذا فاضَ الحَجيجُ إِلى مِنىً ... فَيضاً كَمُلتَطِمِ الفُراتِ الفائِضِ
إِن كانَ رَفضاً حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ ... فَليَشهَدِ الثَقَلانِ أَنّي رافِضي

برحمتك اللهم :

قَلبي بِرَحمَتِكَ اللَهُمَّ ذو أُنُسِ ... في السِرِّ وَالجَهرِ وَالإِصباحِ وَالغَلَسِ
ماتَقَلَّبتُ مِن نَومي وَفي سِنَتي ... إِلّا وَذِكرُكَ بَينَ النَفسِ وَالنَفَسِ
لَقَد مَنَنتَ عَلى قَلبي بِمَعرِفَةٍ ... بِأَنَّكَ اللَهُ ذو الآلاءِ وَالقُدُسِ
وَقَد أَتَيتُ ذُنوباً أَنتَ تَعلَمُها ... وَلَم تَكُن فاضِحي فيها بِفِعلِ مَسي
فَامنُن عَلَيَّ بِذِكرِ الصالِحينَ وَلا ... تَجعَل عَلَيَّ إِذاً في الدينِ مِن لَبَسِ
وَكُن مَعي طولَ دُنيايَ وَآخِرَتي ... وَيَومَ حَشري بِما أَنزَلتَ في عَبَسِ

حبُّه للصالحين :

أُحِبُّ الصالِحينَ وَلَستُ مِنهُم ... لَعَلّي أَن أَنالَ بِهِم شَفاعَه
وَأَكرَهُ مَن تِجارَتُهُ المَعاصي ... وَلَو كُنّا سَواءً في البِضاعَه

تَعصي الإلَهَ وَأَنـتَ تُظهِـرُ حُبَّـهُ ... هَـذا مَحـالٌ في القِيـاسِ بَـديعُ
لَو كانَ حُبُّـكَ صـادِقاً لَأَطَعتَـهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَـن يُحِـبُّ مُطيـعُ
في كُـلِّ يَـومٍ يَبتَـديكَ بِنِعمَـةٍ ... مِنهُ وَأَنـتَ لِشُـكرِ ذاكَ مُضَـيِّعُ

فراسة الشافعى تعرف ما وراء سؤال السائل .

حدَّث الربيع بن سليمان قال: كنا عند الشافعى، إذ جاءه رجل برقعة فنظر فيها وتبسَّم، ثم كتب فيها ودفعها إليه قال: فقلنا يسأل الشافعيَّ عن مسألة لا ننظر فيها وفى جوابها؟ فلحقنا الرجل وأخذنا الرقعة فقرأناها وإذا فيها:

سَلْ المُفْتى المكىَّ هل فى تزاور ... وضمَّة مشتاق الفؤاد جناحُ

و قال: وإذا إجابةً أسفل من ذلك:

أقول: معاذ الله أن يُذْهِبَ التُّقَى ... تلاصُقُ أكباد بهن جراحُ

قال الربيع فأنكرت على الشافعى أن يفتى لحدث بمثل هذا فقلت: يا أبا عبد الله تفتى بمثل ذلك شاباً؟ فقال لى: يا أبا محمد هذا رجل هاشمى قد عرَّس – أى تزوج ودخل – هذا الشهر يعنى شهر رمضان وهو حدث السن. فسأل هل عليه جناح أن يُقَبِّل أو يضُمَّ من غير وطء؟ فأفتيته بهذه الفتيا. قال الربيع: فتبعتُ الشاب فسألته عن حاله فذكر لى أنه مثل ما قال الشافعى فما رأيت فراسة أحسن منها.

علاج الشافعى للوعة الحب :

روى ياقوت الحموى فقال: بلغنى أن رجلاً جاء الشافعى برقعة فيها:

سل المفتى المكى من آل هاشم ... إذا اشتد وجدٌ بامرئ ماذا يَصْنعُ

قال: فكتب الشافعى تحته:

يداوى هواه ثم يكتُمُ وَجْدَه ... ويصبر فى كلِّ الأمور ويخضعُ

فأخذها صاحبها وذهب بها، ثم جاءه وقد كتب تحت هذا البيت الذى هو الجواب:

فكيف يداوى والهوى قاتل الفتى ... وفى كل يوم غُصَّةٌ يتجرَّعُ

فكتب الشافعى – رحمه الله–:

فإن هو لم يصبر على ما أصابَه ... فليس له شىءٌ سوى الموت أنفعُ

ترحُّمٌ على أبى حنيفة :-

لَقَد زانَ البِلادَ وَمَن عَلَيها ... إِمامُ المُسلِمينَ أَبو حَنيفَه

بأَحكامٍ وَآثارٍ وَفِقهٍ ... كَآيات الزَبورِ عَلى الصَحيفَه

فَما بالمَشرِقَين لَهُ نَظيرٌ ... وَلا بالمَغرِبَين وَلا بكوفَه

فَرَحمَةُ رَبِّنا أَبَداً عَلَيهِ ... مَدى الأَيّامِ ما قُرِئَت صَحيفَه

لا مقام فى وطن يضام الحر فيه :-

ارحَل بِنَفسكَ من أَرضٍ تُضامُ بِها ... وَلا تَكُن من فِراقِ الأَهلِ في حُرَقِ

فَالعَنبَرُ الخامُ رَوثٌ في مَواطِنِه ... وَفي التَغَرُّب مَحمولٌ عَلى العُنُقِ

وَالكُحلُ نَوعٌ منَ الأَحجارِ تَنظُرُهُ ... في أَرضِه وَهوَ مَرميٌّ عَلى الطُرُقِ

لَمّا تَغَرَّبَ حازَ الفَضلَ أَجمَعَهُ ... فَصارَ يُحمَلُ بَينَ الجَفنِ وَالحَدَقِ

حلاوة تعقب العلم :-

سَهَري لتنقيح العُلوم أَلَذُّ لي ... من وَصلِ غانيَة وَطيب عناق[1]

وَصَريرُ أَقلامي عَلى صَفَحاتها ... أَحلى مِنَ الدَّوْكاء وَالعُشّاق

وَأَلَذُّ مِن نَقر الفَتاة لِدُفِّها ... نَقري لأُلقي الرَملَ عَن أَوراقي

وَتَمايُلي طَرَباً لِحَلِّ عَويصَة ... في الدَرسِ أَشهى من مُدامَة ساق

وَأَبيتُ سَهرانَ الدُجى وَتَبيتُهُ ... نَوماً وَتَبغي بَعدَ ذاكَ لِحاقي

العقل والمال ضدان :-

لَو كانَ بالحِيَلِ الغِنى لَوَجَدتَني ... بِنُجوم أَقطار السَماء تَعَلُّقي

لَكِنَّ مَن رُزِقَ الحِجا حُرِمَ الغِنى ... ضِدّان مُفتَرِقان أَيَّ تَفَرُّق

وَأَحَقُّ خَلق اللَه بالهَمِّ امرُؤٌ ... ذو هِمَّة يُبلى بِرزق ضَيِّق

وَمِنَ الدَليل عَلى القَضاء وَحُكمه ... بُؤسُ اللَبيبِ وَطيبُ عَيش الأَحمَق

إِنَّ الَّذي رُزِقَ اليَسارَ فَلَم يَنَل ... أَجراً وَلا حَمداً لغَيرُ مُوَفَّق

وَالجَدُّ يُدني كُلَّ أَمرٍ شاسِعٍ ... وَالجَدُّ يَفتَحُ كُلَّ باب مُغلَق[2]

الأحمق من النّاس :

إِذا المَرءُ أَفشى سِرَّهُ بِلِسانه ... وَلامَ عَلَيه غَيرَهُ فَهُوَ أَحمَقُ

إِذا ضاقَ صَدرُ المَرءِ عَن سِرِّ نَفسه ... فَصَدرُ الَّذي يُستَودَعُ السِرَّ أَضيَقُ

---

(١) الغانية: المرأة الغنية بحسنها وجمالها عن الزينة.

(٢) الجَدُّ: هو الحظ.

خُلُق الناس المكر والملق :

لَم يَبقَ في الناسِ إلاّ المَكرُ وَالمَلَــقُ ... شَوكٌ إذا لَمَسوا زَهرٌ إذا رَمَقــوا[1]

فَإن دَعَتكَ ضَــروراتٌ لِعِشــرَتِهِم ... فَكُن جَحيماً لَعَلَّ الشَوكَ يَحتَــرِقُ

توكُّله على الله :

تَوَكَّلتُ في رِزقي عَلى اللَهِ خــالِقي ... وَأَيقَنتُ أَنَّ اللَهَ لا شَــكَّ رازِقــي

وَما يَكُ مِن رِزقي فَلَــيسَ يَفــوتَني ... وَلَو كانَ في قاعِ البِحارِ العَوامِــقِ

سَيَأتي بِهِ اللَــهُ العَظــيمُ بِفَضــلِه ... وَلَو لَم يَكُن مِنّي اللِســانُ بِنــاطِقِ

فَفي أَيِّ شَيءٍ تَذهَبُ النَفسُ حَسرَةً ... وَقَد قَسَمَ الــرَحمَنُ رِزقَ الخَلائِــقِ

ما حكَّ جلدَك مثلُ ظفرك :-

ما حَــكَّ جِلــدَكَ مِثــلُ ظُفــرِكَ ... فَتَــوَلَّ أَنــتَ جَميــعَ أَمــرِكَ

وَإِذا قَصَــــــدتَ لِحاجَــــــةٍ ... فَاقصِــــد لِمُعتَــــرِفٍ بِقَــــدرِكَ

القناعة رأس الغنى :

رَأَيــــتُ القَناعَــــةَ رَأسُ الغِــــنى ... فَصِــــرتُ بِأَذيالِهــــا مُتَمَسِّــــك

فَــــلا ذا يَــــراني عَلــى بابِــــه ... وَلا ذا يَــــراني بِــــهِ مُنــــهَمِك

فَصِــــرتُ غَنِيّــــاً بِــــلا دِرهَــــمٍ ... أَمُرُّ عَلــى النــاسِ شِــبهَ المَلِــك

الإخوان قلائل فى النائبات :-

صُنِ النَفسَ وَاحمِلها عَلى ما يَزينُهــا ... تَعِش سالِماً وَالقَولُ فيــكَ جَميــلُ

---

(١) الملق: التضرع و التودُّد.

وَلا تــولِيَنَّ النـــاسَ إلّـــا تَجَمُّـــلاً نَبا بكَ دَهــرٌ أو جَفــاكَ خَليـــلُ
وَإن ضاقَ رِزقُ اليَومِ فَاصبِر إِلى غَدِ عَسى نَكَباتُ الدَهرِ عَنكَ تَــزولُ
وَلا خَـــيرَ في وِدِّ امـــرِئٍ مُتَلَــوِّنٍ إِذا الريحُ مالَت مالَ حَيثُ تَميـــلُ
وَما أَكثَرَ الإِخوانِ حـــينَ تَعُــدُّهُم وَلَكِــــنَّهُم في النائِبـــاتِ قَليـــلُ

استعن بالله :-

إنَّ المُلـــوكَ بَـــلاءٌ حَيثُمـــا حَلّـــوا فَلا يَكُن لَــكَ في أَبــوابِهِم ظِــلُّ
ماذا تُؤَمِّلُ مِن قَـــومٍ إِذا غَضِـــبوا جاروا عَلَيكَ وَإِن أَرضَيتَهُم مَلّـــوا
فَاستَغنِ بِاللَهِ عَن أَبــوابِهِم كَرَمـــا إِنَّ الوقـــوفَ عَلـــى أَبــوابِهِم ذُلُّ

طريق المعالى غير معبَّد:-

بقـــدرِ الكَـــدِّ تُكْتَسَـــبُ المعـــالى ومن طلب العـــلا ســـهر الليـــالى
ومن رامَ العُـــلا مـــن غـــير كَـــدٍّ أضَاعَ العمـــرَ فى طلـــب المُحَـــال
تـــروم العـــزَّ ثم تنـــام لـــيلاً يَغوصُ البَحْرَ من طلـــب الـــلآلى

الإعراض عن الجاهل :-

أَعــرِض عَـــنِ الجاهـــلِ السَـــفيه فَكُـــلُّ مـــا قـــالَ فَهُـــوَ فيـــه
فما ضَـــرَّ بَحـــرَ الفُـــراتِ يَومـــاً أَن خاضَ بَعـــضُ الكِـــلابِ فيـــهِ

الزمن يؤدِّب :-

كُلَّمـــا أَدَّبَـــــني الدَهـــــــرُ أَرانـــــي نَقـــصَ عَقلـــي
وَإِذا مـــــا ازدَدتُ علمـــــاً زادَني علمــــــاً بجَهلــــــي

عين الرضا كليلة :

وَعَينُ الرضا عَن كُلِّ عَيبٍ كَليلَـــةٌ وَلَكِنَّ عَينَ السُخطِ تُبدي المَســـاوِيا
وَلَستُ بِهَيّــابٍ لِمَــن لا يَهــابُني وَلَستُ أَرى لِلمَرءِ ما لا يَرى لِيــا
فَإِن تَدنُ مِنّي تَدنُ منــكَ مَــوَدَّتي وَإِن تَنأَ عَنّي تَلقَــني عَنــكَ نائِيــا
كِلانا غَــنِيٌّ عَــن أَخيــهِ حَياتَــهُ وَنَحــنُ إِذا مِتنــا أَشَــدُّ تَغانِيــا

لا تنثر العلمَ إلاّ على مَنْ يعرفه:

سَأَكْتُمُ عِلْمِى عَنْ ذَوِى الجَهْلِ طَاقَتِى وَلا أَنْثُرُ الدُّرَّ النَّفِيْسَ عَلَى الغَــنَمِ
فَإِنْ يَسَّرَ اللّــهُ الكَــرِيْمُ بِفَضْــلِه وَصَادَفْتُ أَهْلاً لِلْعُلُــومِ ولِلْحِكَــمِ
بَثَثْتُ مُفِيْدًا وَاسْــتَفَدْتُ وِدَادَهُــم وإلاَّ فَمَخْــزُونٌ لَــدَىَّ وَمُكْتَــتَم

هاتكُ حُرَمِ الرجال :

يا هاتكاً حُــرَمَ الرجــالِ وَقاطعــاً سُبُلَ المَوَدَّةِ عشــتَ غَــيرَ مُكَــرَّمِ
لَو كُنتَ حُرّاً من سُــلالَةِ ماجِــدٍ ما كُنتَ هَتّاكــاً لِحُرمَــةِ مُســلِمِ
مَن يَزنِ يُزنَ بِــهِ وَلَــو بِجِــدارِهِ إِن كُنتَ يــا هَــذا لَبيبــاً فَــافهَمِ

الشافعى يجعل الرجاءَ سُلّماً لعفو الله :-

يقول المازنى: دخلت على الشافعى فى مرضه الذى مات فيــه فقلــت: كيف أصبحتَ ؟ قال: أصبحتُ من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً ولكــأس المنيَّة شارباً، وعلى الله جل ذكره وارداً، ولا والله ما أدرى روحى تصــيرُ إلى الجنة أم إلى النار؟ ثم بكى، وأنشأ يقول:

إليكَ إلهَ الخَلْقِ أرفعُ رغبتي　　　وإنْ كنتُ يا ذا المنِّ والجود مُجْرِمَا
وَلَمّا قَسا قَلبي وَضاقَت مَذاهِبي　　　جَعَلتُ الرَجا منّي لِعَفوِكَ سُلَّما
تَعاظَمَني ذَنبي فَلَمّا قَرَنتُهُ　　　بِعَفوِكَ رَبّي كانَ عَفوُكَ أَعظَما
فَما زِلتَ ذا عَفوٍ عَنِ الذَنبِ لَم تَزَل　　　تَجودُ وَتَعفو مِنَّةً وَتَكَرُّما
فَلَولاكَ لَم يَصمُد لِإِبليسَ عابِدٌ　　　فَكَيفَ وَقَد أَغوى صَفِيَّكَ آدَما
فيا ليتَ شعرى هل أصيرُ لجنَّةٍ　　　أهنا وإمَّا للسَّعير فأندَمَا
فَللَّهِ دَرُّ العارِفِ النَدبِ إِنَّهُ　　　تَفيضُ لِفَرطِ الوَجدِ أَجفانُهُ دَما
يُقيمُ إِذا ما اللَيلُ مَدَّ ظَلامَهُ　　　عَلى نَفسِهِ مِن شِدَّةِ الخَوفِ مَأتَما
فَصيحاً إِذا ما كانَ في ذِكرِ رَبِّهِ　　　وَفي ما سِواهُ في الوَرى كانَ أَعجَما
وَيَذكُرُ أَيّاماً مَضَت مِن شَبابِهِ　　　وَما كانَ فيها بِالجَهالَةِ أَجرَما
فَصارَ قَرينَ الهَمِّ طولَ نَهارِهِ　　　أَخا السُهدِ وَالنَجوى إِذا اللَيلُ أَظلَما
يَقولُ حَبيبي أَنتَ سُؤلي وَبُغيَتي　　　كَفى بِكَ لِلراجينَ سُؤلاً وَمَغنَما
أَلَستَ الَّذي غَذَّيتَني وَهَدَيتَني　　　وَلا زِلتَ مَنّاناً عَلَيَّ وَمُنعِما
عَسى مَن لَهُ الإِحسانُ يَغفِرُ زَلَّتي　　　وَيَستُرُ أَوزاري وَما قَد تَقَدَّما[1]

***

(١) كل هذا الشعر من ديوانه الذى نوهتُ به فى أول الحديث عن الجولة.

الإمام

أحمد بن حنبل

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ



يقول: صاحب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : ومنهم الإمام المبجَّل والهُمام المفضَّل أبو عبد الله أحمد بن حنبل. لزم الاقتداء، وظفر بالاهتداء علمُ الزهاد، وقلم النقاد، امتحن فكان في المحنة صبوراً، واجتُبي فكان للنعمة شكوراً، كان للعلم والحلم واعيا، وللهَمِّ والفكر راعيا.

و قيل : إن التصوف التجلي بالآثار، والتحلي بالأكدار[1].

- **نسبه ومولده :**

هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله ابن حيَّان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جذيلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان الشيباني أبو عبد الله[2].

خرجت به أمه من مَرْو حَمْلاً وولد ببغداد ونشأ بها ومات بها.

- **تاريط ميلاده :-**

عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: قال أبي ولدتُ سنة أربع وستين ومائة في شهر ربيع الأول[3].

و توفِّي أبوه محمد بن حنبل وله ثلاثون سنة فوليته أمه بعد وفاة أبيه[4].

---

(١) حلية الأولياء جـ ٩ ص١٦١.

(٢) شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب جـ ٢ ص٩٦.

(٣) حلية الأولياء جـ ٩ ص١٦٢.

(٤) المرجع السابق ص١٦٣.

- **طلبه للحديث :**

قال أبو الفضل: قال أبي : طلبت الحديث وأنا ابن ست عشـــرة ســـنة وسَمع من هشيم وأول سماع منه سنة تسع وسبعين ومات هشيم وأنـــا ابـــن عشرين سنة[1] وكان ابن المبارك قدم فى هذه السنة وهى آخر قدمة قـــدمها فذهبت إلى مجلسه فقالوا: قد خرج إلى طرسوس وتوفى سنة إحدى وثمانين[2].

- **رحلاته فى طلب العلم :**

رحل الإمام أحمد إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة والـــيمن والشـــام والجزيرة طلباً للعلم وأخذ العلم من علماء هذه البلاد.

- **شيوخ الإمام أحمد بن حنبل :-**

سمع من سفيان بن عيينة وإبراهيم بن سعد ويحيى بن ســـعيد القطـــان وهشيم بن بشير ومعتمر بن سليمان وإسماعيل بن عُلَيَّة ووكيع بـــن الجـــراح وعبد الرحمن بن مهدى وخلق كثيرون ونهل من علم الشافعى .

- **تلاميذه :-**

روى عنه عبد الرزَّاق بن همَّام ويحيى بن آدم وأبو الوليد : هشام بن عبد الملك الطيالسى وأبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى – أخذ عن الإمام أحمد الحديث – والأسود بن عامر شاذان والبخارى ومسلم وأبو داود وأكثر عنه فى كتاب السنن وروى الترمذى عن أحمد بن الحسن الترمذى عن أحمد بـــن

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق.

حنبل، وروى النَّسائى عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عنه وعن محمد بن عبد الله عنه وغيرهم [1].

- **أقوال العلماء في الإمام أحمد رحمه الله**

١- أبو داود السجستانى :

حدثنا أحمد بن محمد القاضى قال: سمعت أبا داود السجستانى يقول: لقيت مائتين من مشايخ العلم فما رأيت مثل أحمد بن حنبل لم يكن يخوض فى شيء مما يخوض فيه النَّاس من أمر الدنيا فإذا ذُكِر العلم تكلَّم.

٢- يحيى الشامى :

قال: ما رأيت أحداً أجمع لكل خير من أحمد بن حنبل ورأيت سفيان بن عيينة ووكيعاً وعبد الرزاق وبقية بن الوليد وضمرة بن ربيعة وكثيراً من العلماء فما رأيت مثل أحمد بن حنبل فى علمه وفقهه وزهده وورعه[2].

٣- أبو عاصم الضحاك بن مخلد :

عن أبى عبد الرحمن بن أحمد قال: حضر قوم من أصحاب الحديث أبا عاصم الضحاك بن مخلد فقال لهم : ألا تتفقَّهون وليس فيكم فقيه؟ وجعل يذمهم، فقالوا: فينا رجل. فقال: من هو؟ فقلنا: الساعة يجيء، فلما جاء أبى قالوا: قد جاء فنظر إليه، فقال له: تقدَّم، فقال: أكره أن أتخطى النَّاس، فقال أبو عاصم: هذا من فقهه وأخذه، فقال: وسعوا له، فوسعوا فدخل فأجلسه بين

(١) شذرات الذهب جـ ٢ ص٩٧.

(٢) حلية الأولياء جـ ٩ ص١٦٤ ، ١٦٥.

يديه فألقى إليه مسألة، فأجاب، وألقى ثانية، فأجاب، وثالثة فأجاب، ومسائل فأجاب، فقال أبو عاصم هذا من دواب البحر.

٤- محمد بن الفضل بن العباس البلخي :

قال: سمعت قتيبة بن سعيد يقول: لو أدرك أحمد بن حنبل عصر الثورى ومالك والأوزاعى والليث بن سعد لكان هو المقدَّم.

٥- سعيد بن الخليل الخزاز :

قال: لو كان أحمد بن حنبل فى بنى إسرائيل لكان آية.

٦- أبو العباس أحمد بن إبراهيم الصوفى :

قال: قال لى رجل من أهل العلم وكان حبراً فاضلاً يكنى بأبى جعفر فى العشية التى دفنا فيها أبا عبد الله : تدرى من دفنَّا اليوم؟ قلت: مَـــنْ؟ قـــال: سادس خمسة، قلت: من؟ قال : أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعليٌّ بن أبى طالب، وعمر بن عبد العزيز، وأحمد بن حنبل. قال أبو العباس: فاستحسنت ذلك منه وعنى بذلك أن كل واحد فى زمنه.

٧- سفيان بن عيينة :

ذُكِر أبو عبد الله أحمد بن حنبل عند الحارث بن أسد، قال الفتح: فقلت للحارث: سمعت عبد الرزاق يقول: سمعت ابن عيينة يقول: علمـــاء الأزمنـــة ثلاثة: ابن عباس فى زمانه والشعبى فى زمانه والثوريُّ فى زمانه، قال الفـــتح: فقلت أنا للحارث: وابن حنبل فى زمانه، فقال لى الحارث: أحمد بن حنبل نزل به ما لم يتزل بسفيان الثورى والأوزاعى.

٨- الهيثم بن حنبل:

قال: إن لكل زمان رجلاً يكون حجة على الخلق، وإن فضيل بن عياض حجة أهل زمانه، قال الهيثم : وأظنُّ إن عاش هذا الفتى أحمد بن حنبل سيكون حجة على أهل زمانه.

٩- قتيبة بن سعيد :-

قال بموت أحمد بن حنبل تظهر البدع وبموت الشافعي ماتـــت الســـنن وبموت الثورى مات الورع.

١٠- يحيى بن معين:

ذكر أحمد بن حنبل عنده: فقال: أراد النَّاس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل: لا والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد بن حنبل ولا علـــى طريقـــة أحمد.

١١- الإمام الشافعي:

يقول عبد الله بن أحمد بن حنبل : سمعت أبي يقول: قال لى محمد بـــن إدريس الشافعي: يا أبا عبد الله، أنت أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا كـــان خبر صحيح فأعلمني حتى أذهب إليه كوفياً كان أو بصرياً أو شاميّاً، قال عبد الله: جميع ما حدَّث به الشافعي فى كتابه : فقال: حدثني الثقة أو أخبرني الثقة فهو أبي – رحمه الله– [1].

(١) المرجع السابق ص١٦٦ – ١٧٠.

- **الإمام أحمد يتحرى الحلال فى الطعام والشراب والسلوك:**

كان الرجل يسيطر عليه الخوف من الجليل فكان فى مجاهدة مع نفسه وغرائزه واحتياجاته الجسدية.

- **أدب فى الطفولة :**

عن أبى بكر المروزى قال: قال لى أبو عفيف وذكر أبا عبد الله أحمد بن حنبل فقال: : كان فى الكُتَّاب معنا وهو غُلَيِّم يُعرَفُ فضلُه وكان الخليفة بالرقة فيكتب النَّاس إلى منازلهم فيبعث نساؤهم إلى المُعلِّم: ابعث إلينا بأحمد بن حنبل ليكتب لهم جواب كتبهم فيبعثه، فكان يجىء إليهم مطأطئ الرأس فيكتب جواب كتبهم فربما أملَوْا عليه الشىء من المنكر فلا يكتبه لهم.

وظل هذا الأدب ملازماً لم يفارقه فعن إدريس بن عبد الكريم قال: قال خلف: جاءنى أحمد بن حنبل يستمع حديث أبى عوانة فاجتهدت أن أرفعه فأبى وقال: لا أجلس إلاَّ بين يديك، أمرنا أن نتواضع لمن نتعلَّم منه[1].

- **حفظ الإمام أحمد للحديث وعلمه :**

عن أبى زرعة قال: كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث فقيل له وما يدريك ؟ قال: ذاكرتُه فأخذت عليه الأبواب.

و قال أبو جعفر بن أحمد بن محمد بن سليمان التُّسْتَرِى قال: قيل لأبى زرعة مَنْ رأيتَ من المشايخ المحدِّثين أحفظ؟ فقال أحمد بن حنبل : حُزِرتْ كتبُه اليومَ الذى مات فيه فبلغت اثنى عشر حملاً وعدلاً. ما كان على ظهر

---

(١) صفة الصفوة جـ ١ ص٥٣٦ ، ٥٣٧.

كتاب منها حديث فلان ولا فى بطنه حديث فلان، وكل ذلك كان يحفظه عن ظهر قلبه.

وعن إبراهيم الحربى قال: رأيت أحمد بن حنبل كأن الله قد جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف يقول ما شاء ويمسك ما شاء.

قال ابن الجوزى: قلت: كان مخايل النجابة تظهر من أحمد رضي الله عنه من زمان الصبا، وكان حفظه للعلم من ذلك الزمان غزيراً وعمله بــه متــوفِّراً فلذلك كان مشايخه يعظمونه فكان إسماعيل بن عُلَيَّة يقدِّمه وقت الصلاة يصلى بهم، وضحك أصحابه يوماً فقال: أتضحكون وعندى أحمد بن حنبل ؟

وكان ابن مهدى يقول: ما نظرت إليــه – أى أحمــد بــن حنبــل– إلاَّ ذكرت سفيان الثورى ولقد كاد هذا الغلام أن يكون إماماً فى بطن أمه [(١)].

• **نهيه النساءَ عن الأمور التى تلفت الرجال إليهن :**

عن أحمد بن عتبة قال: لما ماتت أم صالح قال أحمد لامرأة عندهم: اذهبى إلى فلانة ابنة عمى فاخطبيها لى من نفسها، قال: فأتتها فأجابته. فلما رجعــت إليه، قالت: كانت أختها تسمع كلامك؟ قال: وكانت بعين واحدة؟ قالت له: نعم. قال: فاذهبى، فاخطبى تلك التى بعين واحدة فأتتها فأجابتها وهى أم عبد الله. فأقام معها سبعاً، ثم قالت له: كيف رأيت يا ابن عم أنكرت شيئاً؟ قــال: لا إلاَّ أن نعلك هذه تُصِر – يصدر منها صوت – [(٢)].

---

(١) صفة الصفوة جـ ١ ص٥٣٧.
(٢) المرجع السابق ص٥٣٨.

- **زهد الإمام وعيشة التقشف :-**

عاش الإمام أحمد فى ظل الشظف وخشونة العيش ورقة الحال وفى ظلال هذه السحب القاتمة سكنتْ قلبه القناعة، وهتفت روحه بالرضـــا، وعزفـــت نفسه عن النَّاس وعن دنياهم، فعزَّت نفسه وسمت وكأنها حلَّقـــت وتبـــوأت مكانها بين النجوم فى عليائها وهذا هو الغنى الحقيقى: وهذه صور مضـــيئة فى حياة ابن حنبل هى مصابيح للزاهدين:

١- عن الرمادى قال: سمعت عبد الرزاق وذكر أحمد بن حنبل فـــدمعت عيناه فقال: قدِم وبلغنى أن نقته نفذت فأخذتُ عشرة دنانير وأقمته خلف الباب وما معى ومعه أحد، وقلت: إنه لا تجتمع عندنا الدنانير وقد وجدت الساعة عند النساء عشرة دنانير فخذها فأرجو ألا تنفقها حتى يتهيأ عنـــدنا شـــىء، فتبســـم وقال لى: يا أبا بكر لو قبلت شيئاً من النَّاس قبلت منك. ولم يقبل.

٢- وعن صالح بن أحمد بن حنبل قال: جاءتنى حُسْن – الأَمَة – فقالت: يا مولاى قد جاء رجل بتلِّيسة فيها فاكهة يابسة وبهذا الكتاب، قـــال صـــالح: فقمت فقرأتُ الكتاب فإذا فيه: يا أبا عبد الله : أبضعت لك بضاعة إلى سمرقنـــد فوقع فيها كذا وكذا ورددتها فيها كذا وكذا، وقد بعثت بها إليك، وهى أربعـــة آلاف درهم وفاكهة أنا لقطتها من بستانى ورثته عن أبى وأبى ورثه عن أبيه.

قال: فجمعتُ الصبيان فلما دخل أبى دخلنا عليه فبكيتُ وقلـــت لـــه: يا أبة أمَا تَرِقُّ لى من أكل الزكاة؟ ثم كشفتُ عن رأس الصَّبِّية وبكيتُ فقال: من أين علمت؟ دَعْ. حتى أستخير الله تعالى الليلة، قال: فلما كان من الغـــد قال: يا صالح: إنى قد استخرت الله تعالى الليلة فعزم لى ألاَّ آخـــذها، وفـــتح

التلّيسة ففرقها على الصبيان وكان عنده ثوب عشارى فبعث بـــه إليـــه وردَّ المال، قال: صالح: فبلغنى أن الرجلَ اتخذه كفناً.

٣- وعن رحيلة قال: كنتُ على باب أحمد بن حنبل والباب مجاف وأم ولده تكلّمه وتقول له: إنا معك فى ضيق. منزل صالح يأكلون ويفعلون، وهو يقول: قولى : خيراً، وخرج الصبى معه فبكى فقال له: أى شىء تريد؟ قـــال: زبيب. قال اذهب فخذ من البقال حبة.

٤- وعن أبى بكر المروزى قال: سمعت أبا عبد الله يقول: إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل، وقال: سمعت أبـــا عبـــد الله يقول: أسرُّ أيامى إلىَّ يومٌ أصبح وليس عندى شىء.

٥- وعن صالح بن أحمد قال: ربما رأيتُ أبى يأخذ الكسَرَ فينفض الغبار عنها ثم يُصيِّرها فى قصعة ثم يصب عليها ماءً حتى تبتل ثم يأكلها بالملح ومـــا رأيته قطّ اشترى رُمَّاناً ولا سفرجلاً ولا شيئاً من الفاكهة إلاَّ أن يكون يشترى بطيخة فيأكلها بخبز أو عنباً أو تمراً فأما غير ذلك فما رأيته قط اشتراه وربمـــا خبز له فيجعل فى فُخَّارة عدساً وشحماً وتمرات شهريز فيخص الصبيان بقصعة فيصوت ببعضهم فيدفعه إليهم فيضحكون ولا يأكلون، وكان كثيراً ما يأتدم بالخلِّ وكان يُشْتَرى له شحم بدرهم فكان يأكل منه شهراً، فلما قدم من عند المتوكِّل أدمنَ الصوم وجعل لا يأكل الدسم، فتوهمتُ أنه كان جعل على نفسه إن سلم أن يفعل ذلك.

٦- وعن النيسابورى صاحب إسحاق بن إبراهيم قال: قال لى الأمـــير إذا جاء إفطاره - أى إفطار أحمد وهو فى السجن - أرنيه . قـــال: فجـــاءوا

برغيفين خبز وخيارة فأريته الأمير فقال: هذا لا يجيبنا إذا كان هذا يقنعه.

٧- وعن المروزى قال: سمعت أبا عبد الله يقول: قد وجدت البرد فى أطرافى ما أراه إلا من إدمانى أكل الخلّ والملح [١].

٨- قال على بن المدينى: دخلت منزل أحمد بن حنبل فما بيته إلاّ بما وصف به بيت سويد بن غفلة من زهده وتواضعه.

٩- قال موسى بن هارون سمعت إسحاق بن راهويه يقول: لما خرج أحمد بن حنبل إلى عبد الرزّاق انقطعت به النفقة فأكرى نفسه من بعض الجمالين إلى أن وافى صنعاء وقد كان أصحابه عرضوا عليه المواساة فلم يقبل من أحد شيئاً.

١٠- يقول أحمد بن سليمان الواسطى: بلغنى أن أحمد بن حنبل رهن نعله عند خباز على طعام أخذه منه عند خروجه من اليمن وأكرى نفسه من ناس من الجمالين عند خروجه وعرض عليه عبد الرزاق دارهم صالحة فلم يقبلها منه.

١١- يقول إبراهيم السمرقندى، سألت أبا محمد عبد الله بن عبد الرحمن عن أحمد بن حنبل، قلت: هو إمام؟ قال: إى والله وكما يكون الإمام. إن أحمد بن حنبل : أخذ بقلوب النّاس، إن أحمد صبر على الفقر سبعين سنة.

١٢- حدثنا سليمان بن أحمد ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنى على بن الجهم بن بدر قال: كان لنا جار فأخرج إلينا كتاباً فقال: أتعرفون هذا الخط؟ قلنا: نعم. هذا خط أحمد بن حنبل ، فقلنا له: كيف كتب ذلك؟ قال: كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة فقصدنا أحمد بن حنبل أياماً فلم نره، ثم

---

(١) صفة الصفوة جـ ١ ص٥٣٩ - ٥٤٢.

جئنا إليه لنسأل عنه فقال لنا أهل الدار التى هو فيها: هو فى ذلك البيت، فجئنا إليه والباب مردود عليه، وإذا عليه خُلقان، فقلنا له: يا أبا عبد الله ما خبرك؟ لم نرك منذ أيام؟ فقال: سُرقت ثيابى. فقلت له : معى دنانير فإن شئت خذ قرضا. وإن شئت صلة، فأبى أن يفعل، فقلت: تكتب لى بأخذه؟ قال: نعم، فأخرجت ديناراً فأبى أن يأخذه وقال: اشتر لى ثوباً واقطعه بنصفين، فأومأ أنه يأتزر بنصف ويرتدى بالنصف الآخر، وقال : جئنى ببقيته، ففعلت وجئت بورق وكاغد فكتب لى فهذا خطه.

١٣- يقول أحمد بن محمد التسترى : ذكروا أنه مر على أحمد بن حنبل ثلاثة أيام ما كان طعم فيها. فبعث إلى صديق له فاستقرض شيئاً من الدقيق فعرفوا فى البيت شدة حاجته إلى الطعام، فخبزوا بالعجلة فلما وضع بين يديه قال: كيف عملتم ؟ خبزتم بسرعة هذا؟ فقيل له : كان التنور فى دار صالح - ابنه - مُسْجَرًا وخبزنا بالعجلة، فقال: ارفعوا ولم يأكل فأمر بسد بابه إلى دار صالح [١].

- **تحرى الإمام أحمد الحلال وتركه ما فيه شبهة:-**

كان رَحِمَهُ اللهُ يتحرى الحلال فى شئونه كلها فإذا لاحت شبهةٌ ترك الحلال من أجلها.

ورد عن سليمان بن داود الشاذكونى أن أحمد رهن سطلاً عند فامىّ [٢] فأخذ منه شيئاً يتقوَّته، فجاء فأعطاه فكاكه فأخرج إليه سطلين. فقال: انظر أيهما سطلك؟ فخذه، قال أحمد بن حنبل : لا أدرى. أنت فى حل منه ومما

(١) حلية الأولياء جـ ٩ ص١٧٤ - ١٧٧.

(٢) الفامىّ: بائع الحمص.

أعطيتك، ولم يأخذه، قال الفامي: والله إنه لسطله وإنما أردت أن أمتحنه فيه [1]. أليس هذا هو الورع بعينه؟

و حدثنا أبو حفص عمر بن صالح الطرسوسي قال: ذهبت أنا ويحيى الجلاَّء -وكان يقال إنه من الأبدال- إلى أبي عبد الله فسألته وكان إلى جنبه بوران وزهير وهارون الجمال فقلت: رحمك الله يا أبا عبد الله، بم تلين القلوب؟ فأبصر إلى أصحابه فغمزهم بعينه ثم أطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال: يا بُني بأكل الحلال . فمررت كما أنا إلى أبي نصر بشر بن الحارث فقلت له: يا أبا نصر بم تلين القلوب؟ قال: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب» قلت: فإني جئت من عند أبي عبد الله . فقال: هيه إيش قال لك أبو عبد الله؟ قلت: بأكل الحلال. فقال: جاء بالأصل. فمررت إلى عبد الوهاب ابن أبي الحسن. فقلتُ: يا أبا الحسن بم تلين القلوب؟ قال: ألا بذكر الله تطمئن القلوب» قلتُ: فإني جئت من عند أبي عبد الله . فاحمرت وجنتاه من الفرح. وقال لي: إيش قال أبو عبد الله؟ فقلت: قال بأكل الحلال. فقال جاءك بالجوهر، جاءك بالجوهر الأصل كما قال، الأصل كما قال[2].

و عن شاكر بن جعفر قال: سمعت ابن محمد بن يعقوب يقول: جاءه يوماً رسول من دار أحمد بن حنبل يذكر له أن أبا عبد الرحمن عليل واشتهى الزبد فناول رجلاً من أصحابه قطعة وقال: إشتر له بها زبدًا، فجاء به على ورق سلق فلما نظر الإمام أحمد إليه قال: من أين هذا الورق، قال: أخذته من

(١) صفة الصفوة جـ ١ ص٥٤٢.

(٢) حلية الأولياء جـ ٩ ص١٨٢.

عند البقال، فقال: استأذنته فى ذلك؟ قال: لا، قال : رده [1].

- **عبادة الإمام أحمد بن حنبل :**

مما لا مراء فيه أن الإبحار فى المحيط بسفينة عظيمـــة مـــزودة بـــالأزودة المختلفة يقودها رُبَّانٌ ماهر خبير بقيادة سفينته إبان هبوب الأعاصير وارتفـــاع الأمواج وحلول إظلام السحب، ويعرف الموانئ ويعرف كيف يدخل المرفأ من أقصر الطرق. كذلك العالم الحاذق يعرف الطريق إلى الله ويجيـــد الســـيرَ فى دروب التقوى والعبادة فهذا هو الإمام أحمد العالم الذى حفظ ألـــف ألـــف حديث وكان عالماً فلا شك أنه كما حذق العلم فقد عرف طريق الوصول إلى الله تعالى. وعن عبادته:

يقول عبد الله بن أحمد: كان أبى يقرأ فى كل يوم سبعاً يختم فى كل سبعة ايام وكانت له ختمة فى كل سبع ليال سوى صلاة النهار وكان ساعة يصـــلى عشاء الآخرة ينام نومة خفيفة ثم يقوم إلى الصباح يصلى ويدعو.

و عن عبد الله بن أحمد قال: كان أبى يصلى فى كل يوم وليلة ثلاثمائـــة ركعة، فلما مرض من تلك الأسواط أضعفته فكان يصلى فى كل يوم وليلـــة مائة وخمسين ركعة وكان قرب الثمانين [2].

- **عبادته فى الركن الخامس من أركان الإسلام :**

عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: خرج أبى إلى طرسوس ماشياً وخرج إلى اليمن ماشياً وحجَّ خمس مرات ثلاثة منها ماشياً ولا يمكن لأحد أن يقول:

---

(1) المرجع السابق ص١٨١.

(2) المرجع السابق ص١٨١.

إنه رأى أبي في هذه النواحي يوماً إلاَّ إذا خرج إلى الجمعة وكان أصبر النَّـــاس على الوحدة، وبشر الحافي – رحمه الله- فيما كان فيه لم يكن يصـــبر علـــى الوحدة فكان يخرج إلى ذا ساعة وإلى ذا ساعة [1].

- **المجوس يطمئنون إلى فقه الإمام أحمد:**

كان المجوس يطمئنون إلى علم الإمام أحمد ورسخ في أذهـــانهم أن هـــذا الرجل لا يقول إلاَّ الحق وساعد على رسوخ ذلك خوفـــه مـــن الله وورعـــه والزهد في دنيا النَّاس:

فعن نوح بن حبيب قال: كان عندنا يعني في بلدهم : امرأتان مجوسيتان فاختصمتا في مواريث لهما إلى رجل من المسلمين فقضى لواحدة منهما علـــى الأخرى، فقالت له : إن كنت قضيت عليَّ بقضاء أحمد بن حنبل رضيتُ، وإلاَّ فإني لا أرضى، قال: نوح: فحدثت به أهل طرسوس والشامات[2].

- **بلاء أحمد بن حنبل:**

عهدنا على الأمة الإسلامية أن عظماءها يُبتلون والبلاء داخل الأمة ومن أفرادها المسلمين. وعلى مدى تاريخ هذه الأمة نجد البلاء مركز هبوبـــه مـــن الأمة الإسلامية ومن الحكومات التي تحكم هذه الأمة. والإمام أحمد واحد من الذين صُبَّ عليهم البلاءُ صبّاً، وقبل أن يأتي ميقات بلاء الإمـــام فلقـــد رأى الإمام الشافعي رؤيا للإمام أحمد بن حنبل :

قال الربيع: كتب الشافعي من مصر إلى أحمد بن حنبل كتاباً فلما قـــرأ

---

(1) المرجع السابق ص١٨٣.

(2) المرجع السابق ص١٧٣.

أحمد الكتاب بكى فسألته عن ذلك فقال: إنه يذكر أنه رأى النبى ﷺ، وقال: اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل واقرأ عليه منى السلام وقل لــه إنــك ستمتحن على القول بخلق القرآن فلا تجبهم نرفع لك علماً إلى يوم القيامــة، قال الربيع: فقلت له البشارة فخلع عليَّ قميصه وأخذت جوابه فلما قــدمت على الشافعى وأخبرته بالقميص قال: لا نفجعك به ولكن بِلَّه وادفع إليَّ ماءه حتى أكون لك شريكاً فيه[1].

- **حديث موجز عن فقه الفتنة والبلاء:**

برزت على الساحة الفكرية للأمة الإسلامية طوائف عقائدية: الخوارج والمرجئة والشيعة والمعتزلة وغيرها وعند المعتزلة أن القرآن كلام الله مخلــوق. وهذا مغالطة فى الفكر ومخالفة للنصوص وترك العقل يصول ويجول ولا مجــال للعقل مع الأصول والنصوص وإن دافع عنهم كثير من النَّاس وقــالوا إنهــم يريدون حروف المصحف ولا يريدون معانيه ولا مدلولات حروفه وهذا أيضاً يجب أن لا يُجعل ميداناً للبحث ولا للنقاش حتى لا يُفْتح باب الفتن. فالقرآن كلام الله وهو قديم غير مخلوق، وبهذا قال الإمام أحمد. وحين تغلغل المــذهب الاعتزالى إلى الحكم وحَمَل الأمراءُ المسلمون النَّاس وقبضوا على الإمام أحمــد ليُقْسِروه على قول المعتزلة بأن القرآن كلام الله مخلوق فعــذبوه وأودعــوه السجن وضُرب بالسياط ولكنه لم ينطق بفكرهم. ومع هذا لا يجوز لأحد أن يخرج المعتزلة من دائرة الإسلام.

---

(١) شذرات الذهب جـ ٢ ص٩٨.

● **أيام البلاء والامتحان فى حياة الإمام أحمد :**

قال صالح بن أحمد بن حنبل: ثم امْتُحِن القومُ فوُجِّه بمن امتنع إلى الحبس فأجاب القوم جميعاً غير أربعة : أبي. ومحمد بن نوح وعبيد الله بن عمر القواريرى والحسن بن حماد ثم أجاب عبيد الله بن عمر والحسن بن حماد، وبقى أبي ومحمد بن نوح فى الحبس، فمكثا أياماً فى الحبس ثم ورد الكتاب من طرسوس بحملنا فَحُمل أبي ومحمد بن نوح مقيدين زميلين وأخرجا من بغداد فسرنا معهما إلى الأنبار، فسأل أبو بكر الأحول أبي فقال: يا أبا عبد الله إن عُرِضَتَ على السيف تجيب؟ فقال: لا .

قال أبي: فانطلق بنا حتى نزلنا الرحبة، فلما رحلنا منها – وذلك فى جوف الليل – وخرجنا من الرحبة عرض لنا رجل، فقال: أيكم أحمد بن حنبل؟ فقيل له : هذا، فسلَّم على أبي ثم قال له : يا هذا ما عليك أن تُقْتَل ها هنا وتدخل الجنة ها هنا . ثم سلَّم وانصرف. فقلت : مَنْ هذا؟ فقالوا: هذا رجل من العرب من ربيعة يعمل الشَّعْر فى البادية يقال له : جابر بن عامر فلما صرنا إلى أُذَنَدةَ ورحلنا منها – وذلك فى جوف الليل – فتح لنا بابها فلقينا رجل ونحن خارجون من الباب، وهو داخل فقال: البُشرى، قد مات الرجل قال: أبي. وكنت أدعو الله أن لا أراه. قال: أبو الفضل صالح. فصار أبي ومحمد بن نوح إلى طرسوس، وجاء – يعنى المأمون – من اليذيذون ورفدوا فى أقيادهما إلى الرقة فى سفينة مع قوم محبسين، فلما صارا بعُمان وهو مقيَّد فمكث – بالياسريَّة – بلد – أياماً ثم صير إلى الحبس فى دار اكتريت له عند دار عمارة ثم نقل بعد ذلك إلى حبس العامة فى درب الموصلية فمكث فى السجن منذ

أخذ وحمل إلى أن ضرب وخلى عنه ثمانية وعشرين شهراً. قال: أبى، فكنت أصلى بهم وأنا معه وكنت أرى بوران يحمل له فى زورق ماءً باردًا به إلى السجن[1].

و يقول أيضاً أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل قال أبى: لما كـــان فى شهر رمضان لليلة سبع عشرة خلت منه حُوِّلتُ من السجن إلى دار إســـحاق بن إبراهيم وأنا مقيَّدٌ بقيد واحد. يوجَّه إلىَّ فى كل يوم رجلان سمَّاهما أبى، قال أبو الفضل وهما أحمد بن رباح وأبو شعيب الحجاج يكلمانى ويناظرانى فــإذا أرادا الانصراف دعوا بقيد فقُيِّدتُ به. فمكثت على هذه الحال ثلاثـــة أيـــام فصار فى رجلى أربعة أقياد فقال لى أحدهما فى بعض الأيام فى كلام دار بيننـــا وسألته عن علم الله فقال: علم الله مخلوق . فقلت له : يا كافر كفرت[2].

وظل ينتقل من سجن إلى سجن وظلَّت مرارة هذه الأيام فى حلقوم أحمد بن حنبل، وكان يضرب بالسياط حتى يقول بخلق القرآن ولكنه أبى.

- **ضرب الإمام أحمد بالسياط :**

فعن ميمون بن الأصبغ قال: كنت ببغداد فسمعت ضجَّةً فقلت ما هذا؟ فقالوا : أحمد بن حنبل يمتحن فدخلت فلما ضرب سوطاً قال: بسم الله . فلما ضرب الثانى قال: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، فلما ضرب الثالث: قال: القرآن كلام الله غير مخلوق، فلما ضرب الرابع: قال: «قل لن يصيبنا إلاَّ ما كتب الله لنا» فضرب تسعة وعشرين سوطاً[3].

---

(١) حلية الأولياء جـ ٩ ص١٩٦ ، ١٩٧.
(٢) المرجع السابق ص١٩٧.
(٣) صفة الصفوة جـ ١ ص٥٤٣ – ٥٤٤.

لجوء الإمام إلى الله وقت الضرب :

يقول ميمون: وكانت تكة أحمد حاشية ثوب فانقطعت فنزل السراويل إلى عانته فرمى أحمد طَرْفَه إلى السماء وحرَّك شفتيه فما كان بأسرع أن بقى السراويل لم ينزل، فدخلت إليه بعد سبعة أيام فقلت يا أبا عبد الله رأيتك تحرِّك شفتيك فأىَّ شىء قلت؟ قال: قلت: اللهم إنى أسألك باسمك الذى ملأت به العرش إن كنت تعلم أنى على الصواب فلا تهتك لى ستراً [1].

آلام ضرب السياط :

عن محمد بن إسماعيل بن أبى سمينة قال: سمعت شاباص النائب يقول: لقد ضربتُ أحمدَ بن حنبل ثمانين سوطاً لو ضربته فيلا لهدَّته [2].

بعض المخلصين يشدون من أزر ابن حنبل :

لقد ذكرنا آنفاً بعض الذين آزروا الإمام أحمد ونذكر هنا البعض الآخر:

١- حدثنا سليمان بن أحمد ثنا عبد الله بن أحمد قال: كتب إلىَّ أبو نصر الفتح بن شخرف بخط يده قال: قال أبو حطيط- رجل قد سماه من أهل الفضل من أهل خراسان . قال: حبس أحمد بن حنبل وبعض أصحابه فى المحنة، قبل أن يضرب . قال: أحمد بن حنبل لما كان الليل نام من كان معى من أصحابى وأنا متفكر فى أمرى. فإذا أنا برجل طويل يتخطى النَّاس حتى دنا منى فقال: أنت أحمد بن حنبل ؟ فسكتُّ. فقالها ثانية، فسكتُّ، فقال فى الثالثة: أنت أبو عبد الله أحمد بن حنبل ؟ قلت: نعم، قال: اصبر ولك الجنة، قال

(١) المرجع السابق ص٥٤٤.
(٢) المرجع السابق.

أبو عبد الله : فلما مسنى حرُّ السوط ذكرت قول الرجل[1].

٢- قال عبد الله بن أحمد بن حنبل كنت كثيراً أسمع والـدي يقـول : رحم الله أبا الهيثم، غفر الله لأبي الهيثم، عفا الله عن أبي الهيثم . فقلت : يا أبت من أبو الهيثم ؟ فقال : لما أخرجتُ للسياط ومدت يداي للعقابين إذا أنا بشاب يجذب ثوبي من ورائي ويقول لي : تعرفني ؟ قلت لا . قال : أنا أبو الهيثم العيار اللص الطرّار، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضُربت ثمانية عشـر ألـف سوط بالتفاريق وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا. فاصبر أنت في طاعة الرحمن لأجل الدين . قال : فضُرِبْتُ ثمانية عشر سوطاً بـدل مـا ضرب ثمانية عشر ألفاً وخرج الخادم فقال : عفا عنه أمير المؤمنين [2].

٣- قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : وكتب أهل المطامير إلى أحمد بـن حنبل: إن رجعت عن مقالتك ارتددنا عن الإسلام[3] ولم يتراجع.

- **عفو الإمام أحمد عن أمير المؤمنين المعتصم :**

علم الإمام أحمد أن المعتصم فتح بابك أو فتح عمورية ففـرح بالمـد الإسلامى وأدرك أن رقعة الإسلام زادت على الكرة الأرضـية فعفـا عـن المعتصم.

عن أحمد بن سنان قال: بلغنى أن أحمد بن حنبل جعل المعتصم فى حلٍّ في يوم فتح بابك أو في فتح عمورية فقال : هو في حل من ضربي .

---

(١) حلية الأولياء جـ ٩ ص١٩٣.

(٢) صفة الصفوة جـ ١ ص٥٤٤.

(٣) المرجع السابق.

و قال إبراهيم الحربي : أحل أحمد بن حنبل من حضر ضربه وكل من شايع فيه والمعتصم، وقال: لولا أن ابن أبي داود داعية لأحللته .

- **صور من تعذيب الإمام أحمد :**

خرج الإمام أحمد من السجن دون أن يأخذوا منه ما يريدونه من قول أو شهادة كالذهب إذا أدخل النار فزادته المحنة يقيناً.

فعن النيسابوري صاحب إسحاق بن إبراهيم : قال لي الأمير : إذا جاء إفطاره – أى إفطار الإمام – أرنيه . قال فجاءوا برغيفين خبز وخيارة . فأريتُه الأمير فقال : هذا لا يجيبنا إذا كان هذا يقنعه[1].

وحتى بعد عودته كان متأثراً بعذاب السجن ومع هذا لم يقل إلاّ الحق وهو أن القرآن كلام الله غير مخلوق:

يقول عبد الله بن أحمد بن حنبل : مكث أبي بالعسكر ستة عشر يوماً ما ذاق إلاّ مقدار ربع سويق[2] كل ليلة كان يشرب شربة ماء وفى كل ثلاث ليال يستف حفنة من السويق فرجع إلى البيت ولم ترجع إليه نفسه إلاّ بعد ستة أشهر ورأيت موقَيْه دخلتا فى حدقتيه.

ومع هذا العذاب لم يأخذوا ما يريدون يروى الإمام أحمد فيقول: وجاء ابن أبي دؤاد فقال: إنه قد حلف – أى الأمير – أن يضربك ضرباً وأن يحبسك فى موضع لا ترى فيه الشمس. فقلت له: فما أصنع؟ حتى إذا كدت أن أصبح قلت لخليق أن يحدث فى هذا اليوم من أمرى شىء وقد كنت

---

(١) المرجع السابق.

(٢) طعام يتخذ مدقوق الحنطة والشعير.

خرجتْ من سراويلى فشددت بها الأقياد أحملها بها إذا توجهت إليه فقلت لبعض من كان معى الموكل بى أريد لى خيطاً، فجاءنى بخيط فشددت به الأقياد وأعدت التكة فى سراويلى ولبستها كراهية أن يحدث شيء من أمرى فأتعرى . فلما كان فى اليوم الثالث أُدخلتُ عليه والقوم حضور فجعلت أُدْخَلُ من دار إلى دار وقوم معهم السيوف وقوم معهم السياط وغير ذلك من الزى والسلاح. وقد حُشيت الدار بالجند ولم يكن فى اليومين الماضيين كبير أحد من هؤلاء حتى إذا صرت إليه قال: ناظروه وكلموه فعادوا لمثل مناظرتهم فدار بيننا وبينهم كلام كثير حتى إذا كان فى الوقت الذى كان يخلو بى فجاءنى ثم اجتمعوا فشاورهم ثم نحَّاهم ودعانى فخلا بى وبعبد الرحمن فقال لى: ويحك يا أحمد أنا والله عليك شفيق وإنى لأشفق عليك مثل شفقتى على هارون ابنى فأجبنى: فقلت: يا أمير المؤمنين: أعطونى شيئاً من كتاب الله ﷻ أو سنة رسوله ﷺ، فلما ضجر وطال المجلس قال: عليك لعنة الله، لقد طمعت فيك. خذوه: اخلعوه : اسحبوه : قال: فأخذت فسحبتُ ثم خُلعتُ ثم قال: العقَّابين السياط فجيء بعقابين والسياط. قال: أبى – الكلام لعبد الله بن أحمد – وقد كان صار إلىَّ شعرتان من شعر النبى ﷺ فصررتهما فى كم قميصى فنظر إسحاق بن إبراهيم إلى الصُّرَّة فى كم قميصى فوجَّه إلىَّ ما هذا المصرور فى كمك؟ فقلت : شعر من شعر النبى ﷺ . فسعى بعض القوم إلى القميص ليحرقه فى وقت ما أقمت بين العقابين فقال لهم: لا تحرقوه وانزعوه عنه، قال أبى : فظننت أنه بسبب الشعر الذى كان فيه. ثم صُيِّرت بين العقابين وشُدَّت يدى وجيء بكرسى فوضع له وابن أبى دؤاد قائم على رأسه والنَّاس اجتمعوا وهم قيام ممن

حضر فقال لى إنسان ممن شدَّنى خذ أىَّ الخشبتين بيدك وشد عليها . فلم أفهم ما قال . قال: فتخلَّعت يدى لَّما شُدَّت ولم أمسك الخشبتين قال أبو الفضـــل: ولم يزل أبى – رحمه الله– يتوجع منها من الرُّسْغ إلى أن توفى ثم قال للجلادين : تقدموا. فنظر إلى السياط فقال: ائتوا بغيرها. ثم قال لهم : تقـــدموا. فقـــال لأحدهم: أدنه أوجع. قطع الله يدك – إى إذا لم توجع – فتقـــدم فضــــربنى سوطين . ثم تنحَّى فلم يزل يدعو واحداً واحداً فيضربنى سوطين ويتنحـــى ثم قام حتى جاءنى وهم مُحدقون به فقال: ويحك يا أحمد تقتل نفســـك؟ ويحـــك أجبنى حتى أطلق عنك بيدى. قال : فجعل بعضهم يقول ويحك: إمامُك على رأسك قائم. قال وجعل يعجب وينخسنى بقائم سيفه ويقول تريد أن تغلـــب هؤلاء كلَّهم، وجعل إسحاق بن إبراهيم يقول: ويلك الخليفة علـــى رأســـك قائم، قال: ثم يقول بعضهم يا أمير المؤمنين دمه فى عنقى . قال: رجع فجلس على الكرسىِّ، ثم قال للجلاد: ادنه شُدّ. قطع الله يدك، ثم لم يزل يدعو بجلاد بعد جلاد فيضربنى سوطين ويتنحى وهو يقول له شد. قطع الله يدك . ثم قام لى الثانية فجعل يقول: يا أحمد : أجبنى . وجعل عبد الرحمن بن إسحاق يقول: لى من صنع بنفسه من أصحابك فى هذا الأمر ما صنعت؟ هذا يحيى بن معـــين وهذا أبو خيثمة وجعل يعدِّد علىَّ مَنْ أجاب وجعل هو يقول: ويحك أجـــبنى. قال: فجعلت أقول نحواً مما كنت أقول لهم. قال: فرجع فجلس ثم جعل يقول للجلاد: شد. قطع الله يدك. قال أبى فذهب عقلى. وما عقلـــت إلا وأنـــا فى حجرة طلق عنى الأقياد. فقال إنسان ممن حضر : إنا كببناك علـــى وجهـــك وطرحنا على ظهرك سارية ودسناك فقال أبى ما شعرت بذلك . قال: فجاءونى

بسويق فقالوا لى : اشرب وتقيَّأ فقلت: لا أفطر ثم جىء بى إلى دار إسحاق بن إبراهيم . قال أبى فنودى بصلاة الظهر. فصلينا الظهر قال: ابن سماعة: صلَّيت والدمُ يسيل: مَنْ ضربك ؟ فقلت: قد صلى عمر وجُرحه يثعب دماً فسكت . ثم خلى عنه ووجه إليه برجل ممن يُبصر الضرب والجراحات ليعالج فيها. فنظر إليه فقال لنا: والله لقد رأيتُ مَنْ ضُرب الفُ سوط ما رأيتُ ضرباً أشدَّ من هذا. لقد جر عليه من خلفه ومن قُدَّامه ثم أدخل ميلاً فى بعض تلك الجراحات وقال: لم يثعب فجعل يأتيه ويعالجه وقد كان أصاب وجهه غير ضربة ثم مكث يعالجه ما شاء الله، ثم قال : عن ها هنا شيئاً أريد أن أقطعه فجاء بحديدة فجعل يعلِّق اللحم بها ويقطعه بسكين معه وأحمد بن حنبل صابر لذلك يحمد الله فى ذلك فيراه منه ولم يزل يتوجع من مواضع منه وكان أثر الضرب بينا فى ظهره إلى أن توفِّى – رحمه الله –[1].

رحم الله الإمام أحمد، أهانته الأمة ومزقت جسده، وأورثته عللاً سببت له الوفاة.

- **ردّ الإمام أحمد صلة أمير المؤمنين:**

أحس حكامُ المسلمين أنهم أخطأوا فى حق الرجل فأُخرج من السجن وبعث أمير المؤمنين إلى الإمام أحمد بمال كثير، فقال له رسول أمير المؤمنين: يا أبا عبد الله أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول : قد أحببت أن آنس بقربك وأن أتبرك بدعائك، وقد وجهت إليك عشرة آلاف درهم معونة على سفرك، أخرج صرة فيها بدرة نحو مائتي دينار والباقي دراهم صحاح، فلم ينظر إليها

(١) حلية الأولياء جـ ٩ ص٢٠١ – ٢٠٣.

ثم شدها يعقوب وقال له : أعود غداً حتى أبصر ما تعزم عليه وانصرف .

يقول صالح بن الإمام أحمد: فجئت بإجانة[1] خضراء فكببتها على البدرة، فلما كان عند المغرب قال : يا صالح خذ هذا صيره عندك فصيرتها عند رأسي فوق البيت . فلما كان سحراً إذا هو ينادي : يا صالح فقمت فصعدت إليه فقال : ما نمت ليلتي هذه . فقلت : لم يا أبت ؟ فجعل يبكي وقال : سلمت من هؤلاء حتى إذا كان في آخر عمري بليت بهم، قد عزمت على أن أفرق هذا الشيء إذا أصبحت . فقلت : ذاك إليك فلما أصبح قال : جئني يا صالح بميزان . وقال : وجهوا إلى أبناء المهاجرين والأنصار . ثم قال : وجه إلى فلان يفرق في ناحية وإلى فلان فلم يزل حتى فرقها كلها ونفضت الكيس، ونحن في حالة الله تعالى بها عليم .فجاء بُنَيٌّ لي فقال : يا أبت أعطني درهماً . فنظر إليَّ فأخرجت قطعةً فأعطيته وكتب صاحب البريد: إنه قد تصدق بالدراهم من يومه حتى تصدق بالكيس. قال علي بن الجهم: فقلت: يا أمير المؤمنين قد علم الناس أنه قد قبل منك، وما يصنع أحمد بالمال؟ وإنما قوته رغيف. فقال لي: صدقت يا عليّ[2].

- **الإمام أحمد بن حنبل مجاب الدعوة :**

عن علي بن أبي حرارة قال : كانت أمي مقعدةً نحو عشرين سنة . فقالت لي يوماً: اذهب إلى أحمد بن حنبل فسله أن يدعو الله لي . فمضيت فدققتُ عليه الباب . فقال: من هذا ؟ فقلت : رجل من أهل ذلك الجانب،

(١) الإجَّانة : إناء يغسل فيه بالماء.

(٢) صفة الصفوة جـ ١ ص٥٤٥.

سألتني أمي وهي زَمِنَةٌ مقعدةٌ أن أسألك أن تدعو الله لها . فسمعت كلامه كلام رجل مغضب وقال : نحن أحوج أن تدعو الله لنا . فولَّيْتُ منصرفاً فخرجتْ عجوز من داره فقالت : أنت الذي كلَّمتَ أبا عبد الله ؟ قلت : نعم . قالت : قد تركته يدعو الله لها. قال : فجئتُ من فوري إلى البيت فدققت الباب فخرجتْ على رجليها تمشي حتى فتحتْ لي الباب وقالت : قد وهب الله لي العافية[1].

- **وفاة الإمام أحمد بن حنبل :**

قال المروزي : مرض أبو عبد الله ليلة الأربعاء لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين، ومرض تسعة أيام وتسامع الناس فأقبلوا لعيادته ولزموا الباب الليل والنهار يبيتون، فربما أذن للناس فيدخلون أفواجاً يسلمون عليه، فيرد عليهم بيده .

و قال أبو عبد الله: جاءني حاجب لابن طاهر فقال : إن الأمير يقرئك السلام وهو يشتهي أن يراك. فقلت له: هذا مما أكره، وأمير المؤمنين أعفاني مما أكره [2].

وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: لما حضرت أبي الوفاة جلست عنده وبيدي الخرقة لأشد بها لحييه. فجعل يعرق ثم يفيق . ثم يفتح عينيه ويقول بيده هكذا : لا بعد لا بعد . ففعل هذا مرة وثانية .فلما كان في الثالثة قلت له: يا أبت أي شيء هذا قد لهجت به في هذا الوقت ؟ تعرق حتى نقول

(١) المرجع السابق ص٥٤٣.
(٢) المرجع السابق ص٥٤٧.

قد قضيت. ثم تعود فتقول: لا بعد لا بعد. فقال لي: يا بني ما تدري ما قلت؟ قلت: لا. فقال: إبليس لعنه الله قائم حذائي عاضٌّ على أنامله يقول لي: يا أحمد فُتَّني. فأقول: لا بعد لا بعد حتى أموت.

و عن حنبل قال : أعطى بعض ولد الفضل بن الربيع أبا عبد الله وهو في الحبس ثلاث شعرات فقال: هذا من شعر النبي ﷺ. فأوصى أبو عبد الله عند موته أن يُجعل على كل عين شعرة وشعرة على لسانه . ففعل ذلك بعد موته.

وعن صالح بن أحمد قال: قال لي أبي جئني بالكتاب الذي فيه حديث ابن إدريس عن ليث عن طاوس أنه كان يكره الأنين. فقرأته عليه فلم يئن إلا في الليلة التي مات فيها.

ويقول ابنه أيضاً: ووضأته فقال : خلِّل الأصابع . فلما كان يوم الجمعة اجتمع الناس حتى ملأوا السِّكك والشوارع . فلما كان صدر النهار قُبض رحمه الله، فصاح الناس وعلت الأصوات بالبكاء حتى كأن الدنيا قد ارتجت [1].

- **أمَّةٌ تشيِّع أمَّةً كان قانتاً لله :**

و عن بنان بن أحمد القصباني أنه حضر جنازة أحمد بن حنبل فيمن حضر. قال : فكانت الصفوف من الميدان إلى قنطرة باب القطيعة . وحُزِرَ مَنْ حضرها من الرجال ثمان مائة ألف ومن النساء ستين ألف امرأة .

و عن موسى بن هارون قال : يقال إن أحمد بن حنبل لما مات مسحت

(١) صفة الصفوة جـ ١ ص٥٤٧.

الأمكنة المبسوطة التي وقف الناس عليها للصلاة فحزر مقادير الناس بالمساحة على التقدير ستمائة ألف وأكثر، سوى مـا كـان في الأطـراف والجـوالي والسطوح والمواضع المتفرقة أكثر من ألف ألف[1].

- **إسلام كثير من اليهود الذين عايشوا وفاة الإمام:**

لقد أثَّرت وفاة الإمام أحمد فى النَّاس وفى جميع أهل الأديـان الأخـرى ولقد أسلم كثير من اليهود من عظمة هول هذا الحدث:

فعن محمد بن عباس الشكتى قال: سمعت الوركانى يقول: أسلم يوم مات أحمد بن حنبل عشرة آلاف من اليهود والنصارى والمجوس، قـال: وسمعـتُ الوركانى يقول: يوم مات أحمد بن حنبل وقع المأتم والنوح فى أربعة أصناف من النَّاس المسلمين. واليهود والنصارى والمجوس [2].

- **الثناء على أحمد بن حنبل:**

١- عن سلمة بن شبيب قال: كنا فى أيام المعتصم يوماً جلوساً عند أحمد ابن حنبل فدخل رجلٌ فقال: مَنْ منكم أحمد بن حنبل ؟ فسكتنا فلم نقل شيئاً. فقال أحمد بن حنبل : ها أنا أحمد فما حاجتك؟ قال : جئتك مـن أربعمائـة فرسخ برّاً وبحراً، كنت ليلة جمعة نائماً فأتانى آت فقال: أتعرف أحمد بن حنبل؟ قلت: لا. قال: فأت بغداد وسَلْ عنه، فإذا رأيته فقل له إن الخضـر يقرئـك السلام ويقول لك إن ساكن السماء الذى على عرشه راضٍ عنك. والملائكة راضون عنك بما صيَّرت نفسك لله. فقال أحمد: ما شاء الله لا قوة إلاَّ بـالله.

(١) المرجع السابق ص٥٤٧ ، ٥٤٨.
(٢) حلية الأولياء جـ ٩ ص١٨٠.

الك حاجة غير هذه؟ قال: ما جئتك إلا لهذا فتركه وانصرف[1].

٢- وعن حبيش بن الورد قال: رأيت النبى ﷺ فى المنام، فقلت : يا نبى الله ما بال أحمد بن حنبل ؟ فقال : سيأتيك موسى عليه السلام فاسأله فإذا بموسى عليه السلام فقلت: يا نبى الله ما بال أحمد بن حنبل ؟ فقال: أحمد بن حنبل بُلى فى السراء والضراء فوجد صدِّيقاً فألحق بالصديقين[2].

٣- وعن عبد الله بن القاسم القرشى قال: سمعت المروزى يقول: رأيت أحمد بن حنبل فى المنام وعليه حُلَّتان خضراوتان وفى رجليه نعلان من الذهب الأحمر شراكهما من الزمرد الأخضر وعلى رأسه تاج من النور مرصَّع بالجوهر وإذا هو يخطر فى مشيته فقلت له حبيبى يا أبا عبد الله ما هذه المشية التى لا أعرفها لك؟ قال: هذه مشية الخدام فى دار السلام، فقلت: حبيبى أبا عبد الله ما هذا التاج الذى أراه على رأسك؟ قال: إن الله عز وجل غفر لى وأدخلنى الجنة وحبانى وكسانى وتوجنى بيده وأباحنى النظر إليه وقال لى يا أحمد فعلت بك هذا لقولك القرآن كلامى غير مخلوق[3].

٤- ذكر ابن مجمع بن مسلم قال: كان لنا جار قُتل بقزوين . فلما كان الليلة التى مات فيها أحمد بن حنبل خرج إلينا أخوه فى صبيحتها فقال: إنى رأيت رؤيا عجيبة. رأيت أخى الليلة فى أحسن صورة راكباً على فرس فقلت له : يا أخى أليس قد قتلت بقزوين؟ قال: إن الله عز وجل أمر الشهداء وأهل السماوات أن يحضروا جنازة أحمد بن حنبل. فكنت فيمن أُمِرَ بالحضور.

(١) المرجع السابق ص١٨٨.
(٢) المرجع السابق ص١٨٩.
(٣) المرجع السابق.

فأرَّخنا تلك الليلة فإذا أحمد بن حنبل مات فيها[1].

٥- وذكر ابن مجمع عن أبي القاسم الأحول: حدثنا يعقوب بن عبد الله قال: رأيت سريًا السقطى فى النوم فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: أباحنى النظر إلى وجهه. فقلت: ما فُعِل بأحمد بن حنبل وأحمد بن نصر؟ فقال: شغلا بأكـــل الثمار فى الجنة[2].

٦- وعن أبي يوسف بن لحيان قال: لما مات أحمد بن حنبل رأى رجـــل فى منامه كأن على كل قبر قنديلاً فقال: ما هذا؟ فقيل له: أما علمت أنه نُوِّر لأهل القبور قبورهم بنزول هذا الرجل بين أظهرهم قد كان فـــيهم يعـــذَّب فرحم[3].

٧- وعن أبي على بن البنَّاء قال: لما ماتت أم القطيعى دفنها فى جـــوار أحمد بن حنبل فرآها بعد ليالٍ فقال: ما فعل الله بك؟ فقالت: يا بُنىّ رضى الله عنك فلقد دفنتنى فى جوار رجلٍ تنزل على قبره فى كل ليلة أو قال فى كل ليلة جمعة رحمة تعم جميع أهل المقبرة وأنا منهم.

رحم الله أحمد بن حنبل

(١) المرجع السابق ص١٩٠.
(٢) المرجع السابق ص.
(٣) صفة الصفوة جـ ١ ص٥٤٨.

وقفة تأمل

هؤلاء هم الأئمة الأربعة: أبو حنيفة ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل . شموس أضاءت سماء الأمة الإسلامية، فأرسلت سـناها فأزاحـت دياجيرهـا وبدّدت غسقها، وأنارت للأمة دروبها، وطافت بالأمة أفكارهم وتوارى الجهل بفقههم . فكشفوا غوامض النصوص وأبرزوا المعقول فى صورة المحسـوس . وبيّنوا الغرض من السنة وفرّقوا بين الركن والسنة والهيئة . وبينوا الأحكـام فيها. أراحوا المسلمين بفقه العبادات والمعاملات، ووضعوا الأصول فى قوالبها والفروع فى أظرها، فبزوغ هذه الشموس فى سماء هذه الأمة كان رحمة لهـا، والذين يقولون الآن نحن لا نأخذ بآراء هؤلاء الأئمة، بـل نأخـذ بالكتـاب والسنة، وزاد بعضهم على هؤلاء الأئمة بالشتم والسـب وسـهى هـؤلاء القاذفون عن أن الأئمة لم يخرجوا عن محيط الكتاب والسنة، بل كانوا رحمـة للأمة، فالشريعة التى جاء بها الرسول ﷺ بحر يتفرع عنه جميع أبحـر العلـوم النافعة، وعلماء هذه الأمة متصلون بعين الشريعة عن طريق الكشف والبيان، واغترفوا منها ولا غرو فإن الشريعة كالشجرة العظيمـة . وأقـوال الأئمـة كالفروع والأغصان. فلا يوجد لهم فرع من غير أصل ولا ثمر من غير غصن. فهؤلاء الأئمة على هدىً من ربهم، ولا يصح أن يجتمع مثلُهم على ضـلالة، فكل قول من أقوال علماء هذه الأمة موافق للشريعة فى نفس الأمـر وإن لم يظهر لبعض المقلّدة ذلك. كما أن كل قول من أقوال علماء هـذه الشـريعة موافق لشريعة نبيٍّ ممن تقدم . وأن من عمل بما اتفق عليه العلماء كلهم فكأنه عمل بغالب شرائع الأنبياء. وربما كان له من الأجر كأجر جميع أتباع الأنبياء

كلهم إكراماً لأمة سيدنا محمد ﷺ »[1].

و الأئمة على هدىً من ربهم وإن تفاوتوا فى العلم والفضل، ولا يجـــوز لأحد التفضيل الذى يؤدى إلى نقص قياساً على ما ورد فى تفضيل الأنبيــــاء . فلقد حرَّم العلماءُ التفضيل المؤدى إلى نقص نبى أو احتقـــاره، وقـــد وقـــع الاختلاف بين الصحابة فى الفروع. وانتشروا فى الأمصار وكلــــهم مصـــيب. وأخذ الأئمة عنهم، فاختلافهم رحمة أى توسعة للأمة فى أمور دينــــها. فقـــول الرسول ﷺ «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» والأئمة قد أخذوا عن الرسول ﷺ وعن الصحابة.

هذا وبالله التوفيق

انتهيت من تأليف هذا الكتاب فى اليوم الموافق لميلادى

وهو ٢٣ / ٧ / ٢٠٠٥

أستاذ دكتور

شحات حسيب الفيومى

---

(١) الميزان الكبرى الشعرانية جـ ١ ص٣٣.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- السنة النبوية المشرفة.

٣- أئمة الحديث ، للدكتور / الحسينى عبد المجيد هاشم، سلسلة البحوث الإسلامية.

٤- أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام.

٥- أحكام القرآن لابن عربى.

٦- إحياء علوم الدين، للإمام حجة الإسلام الغزالى.

٧- تاريخ بغداد، للحافظ أبى بكر: أحمد بن علي، المعروف: بالخطيب البغدادي.

٨- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، للحافظ أبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهانى ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان.

٩- ديوان الإمام الشافعى، حبر الأمة وإمام الأئمة، تحقيق الأستاذ الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجى، نشر مكتبة الكليات الأزهرية.

١٠- سير أعلام النبلاء، للحافظ، شمس الدين: محمد بن أحمد الذهبي.

١١- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ابن العماد الحنبلى.

١٢- صفة الصفوة، للحافظ أبى الفرج ابن الجوزى.

١٣- مجموعة الردود الشاملة ، لسيدى محمد إبراهيم سالم.

١٤- المعجم الوجيز.

١٥- الميزان الكبرى الشعرانية.

١٦- وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، للقاضي، شمس الدين، أبي العباس: أحمد بن محمد، المعروف: بابن خلكان،الشافعي.

الفهرس

الإمام مالك بن أنس

الإمام محمد بن إدريس الشافعى

الإمام أحمد بن حنبل

رقم الإيداع
٣٢٢٠ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولى
I.S.B.N. ٩٧٧- ٢٢٤ – ٤٥٧ - ٨